

الجزء الثاني

من رسائل الأب صفرونيوس إلى تلميذه ثيؤدوروس

المِئَوِيَّةُ الثَّانِيَةِ لِلتَّوْبَةِ وَعَمَلُ الرُّوحِ الْقُدُسِ فِي الْقَلْبِ





(الجزء الثاني)

رسالة الأب صفرونيوس إلى تلميذه ثيؤدوروس (تادرس)

جدول المحتويات

طبيعة الخطية

١– سألتني عن طبيعة الخطية؟ وجوابي هو أن الخطية والموت والشيطان معاً طبيعة واحدة؛ لأنهم يشتركون في التعدِّي. الأولى والثاني أي الخطية والموت، لا يمكن فصلهما عن بعضهما، والثالث هو المصدر. الأولى لا وجود لها إلاَّ في الخطاة. والثاني هو النتيجة. والثالث هو مصدر الغواية لترك الحق، أي الحدود التي تخص الطبيعة.

وقد جاء الرب يسوع المسيح، فأباد الخطية والموت معاً؛ لأنه عندما أباد الموت، فصل الموت عن الخطية، وجرد الشيطان الذي له سلطان الموت من سلطانه (كولوسي ٢ : ١٥).

وهناك فرقٌ بين من يشرح الخطيةَ كتعدٍّ، ومن يشرح الخطية في نور إنجيل ابن الله؛ لأن المسيح يسوع ربنا كشف لنا عن طبيعة الخطية. وعندما نتكلم عن الخطية، فإن الموت والشيطان معاً هما مصدر الظلمة الفساد والتعدِّي والموت.

٢– حسناً يا مَن دُعيت عطية الله (ثيؤدوروس)، هل تريد أن تعرف جذور الخطية؟ تأمَّل حُب الرئاسة. هو من الشيطان الذي أراد أن يكون مثل الله، وأغرى آدم لكي يسلك في ذات الطريق، فوقع في فخ الموت الروحي الذي أدَّى إلى موته الجسداني بعد ذلك؛ لأنه لم يمُت بعد السقوط، بل عاش كل حياته خارج الفردوس. ولأن بذرة الموت في الروح الإنسانية، لذلك زرع الربُ بذرة الحياة في القلب لكي تنمو بمياة روح الحياة الذي أقام ربنا يسوع من الأموات.

٣– هل مات الرب يسوع المسيح على الصليب موتاً روحياً وجسدياً معاً مثل آدم؟ الجواب نعم، ولا. فقد أخذ "الحكم" الذي كان يخصنا، ولكنه مزَّق "الصك" ورفعه من الوسط، أي أزاله من علاقة الشركة بين الله والإنسان، فقد مزقه بالصليب عندما سمره في الصليب. هذا لا يحدث إذا كان الرب قد مات موتاً روحياً مثل آدم، ولذلك يقول الرسول بطرس في يوم العنصرة إن الموت عجز عن أن "يمسكه"

(أع ٢ : ٢٤)؛ لأن الحكم صدر من فم الثالوث الواحد، ولذلك لم يكن هناك آخراً له سلطان الحكم غير الآب والابن والروح القدس. والديان العادل لا يُعطِ حساباً لآخر، بل حسب صلاحه يعطي ما يشاء؛ لأن الطين لا يتجاسر على أن يسأل الخزَّاف لماذا صنعتني هكذا؟ (رو ٩ : ٢٠ – ٢١).

وعندما نقول: نعم، فلأنه مات فعلاً، وانفصلت نفسه عن جسده، وهو ذات موت آدم. وعندما نقول: لا، فلأننا لا ننسى أن الرب له سلطان الحياة، ولذلك نزل إلى الجحيم، ليس كميِّتٍ تحت سلطان الموت أي الشيطان، بل نزل وشتَّت قوات الظلمة، وأباد قوات الجحيم، وكسر شوكة الموت، ومزَّق الصك؛ لأن له سلطان الحياة [1].

٤– تأمَّل سلوك الموحِّدين، إنهم يمدحون كبرياء الله، وحُب الرئاسة فضيلةٌ عندهم، والتواضع ضعف؛ لأنهم غرباء عن ابن الله، وهم مثل أبيهم الذي اشتهى أن يكون مثل الله لكي يحارب الله وينزع سلطانه، ففقد إدراكه بأنه مخلوق. أمَّا آدم فقد خَلُصَ بموت الرب وتواضعه. والصليب وحده هو الذي يكشف عن ضعف القوة وعجزها، فهو ميزان القوة الحقيقية، أي قوة المحبة والتواضع التي أعلنها الرب.

---

(١) تؤكد ذلك قطع صلاتي الساعة السادسة والتاسعة "مزق صك خطايانا"، وأيضاً ذكصولوجيات القيامة "بقوته أبطل الموت وجعل الحياة تضيء لنا .. بوابو الجحيم رأوه وخافوا وأهلك طلقات الموت ولم تستطع أن تمسكه. سحق أبواب نحاس وكسر متاريس حديد وأخرج مختاريه بفرح وتهليل .. رفعهم الى العلو معه الى مواضع راحته.

الموت الروحي

٥- الموت الروحي والجحيم هما وجها الدينار؛ لأن الجحيم هو الحياة المحصورة التي لا نمو فيها والتي فقدت الهدف أو غاية الوجود؛ **لأن الإنسان إذ خُلِقَ على صورة الله، فهو بدون الله يصبح صورة نفسه،** وبذلك يحدد وجوده ويحصره في الوجود غير النامي والمحدود بصورة الإنسان التي خلقها لنفسه، ولذلك يعجز الإنسانُ عن أن يرتفع إلى ما هو أعلى من صورته الإنسانية؛ لأن محاربة صورة الله فينا تجعلنا غرباء عن وجودنا الحقيقي، وأسرى وجودنا الكاذب الذي صنعناه لأنفسنا.

وعندما قال الرسول عن ربنا له المجد أنه "أدان الخطية في الجسد" (رو ٨ : ٣)، فقد قَبِلَ موت الجسد الذي يشتهي الخلود، ويسعى للبقاء بقوة الحياة الداخلية بدون الله، أي بدون نعمة الله المصدر الحقيقي للحياة. أمَّا الرب يسوع فقد أخذ جسدنا ورده إلى الحياة التي لا تموت بالشركة في أُقنومه الإلهي، وهي شركة في الآب والابن والروح القدس.

وعندما ذاق الربُ الموتَ بالجسد على الصليب، حكم على فساد الخطية كأسلوب (أو وسيلة) للحياة، فقد رفض الحياة التي لا تعرف الله ولا تقبله بعكس آدم.

فعندما ذاق الموت، وضع نهايةً لاغتراب الجسد عن الله وعن الحياة الداخلية (القلب)؛ لأن الجسد يغترب عن الروح الإنسانية عندما يصبح وسيلة وأداة للخطية، فيترك الحياة الطبيعية (البيولوجية) ويتشكل بكل صور الخطية ويقع أسيراً للموت؛ لأن موت الخطية نابعٌ من الخطية التي يصفها الرسول بأنها "أعمال الجسد الميتة"، أي تلك التي لا حياة فيها، والتي تجعلنا غرباء عن أنفسنا، وعن أجسادنا، وعن الله مصدر الحياة.

هل الموت الروحي انفصالٌ عن الله؟

٦- يتناقض وجود الإنسان مع غاية خلقه؛ لأنه لا يوجد كائن في السموات أو على الأرض له حياة في ذاته، حيٌ بقوته وإرادته، وقادرٌ على البقاء بقدراته. فالله وحده هو الحي إلى الأبد، وهو كما تقول الأسفار المقدسة "الكائن"، أمَّا نحن فلنا صورة هذا الكيان. ولذلك، الانفصال هو من جانبنا فقط، بدأ منا ويبقى فينا برفض الوصايا، وطلب القوة التي لا تعرف المحبة، ولا يحركها التواضع، أي ذات حياة الشيطان الذي ماتت حياته عندما أراد أن يصير مثل الله بدون الله.

هنا يجب أن ندرك أن الانفصال هو من جانبنا فقط، وإن الله لم يفصل حياته عنا، بل حفظ لنا نعمة الوجود، وحسب عبارة الرسول "إننا به نحيا ونتحرك ونوجد" (أع ١٧ : ٢٨)، منتظراً زمان التجديد. ولا يجب أن نخطئ في فهم هذا الأمر حتى لا نسقط في اليأس؛ لأن الله لم يتركنا، بل أرسل الأنبياء لأجلنا [١] وأعطى الشريعة، وأعلن بره للإنسانية إذ ترك الشريعة الداخلية تحركهم لطلب الله خالقهم، وهو ما نراه حتى في عبادة الأوثان التي هي عبارة عن بحث وطلب الخالق، وإن كان هذا البحث يغطيه فساد الإدراك.

ما هي علامات الانفصال عن الله، وهل هي الموت الروحي؟

٧- كما ذكرنا من قبل، علامات الانفصال هي:

أولاً: جهل الإنسان بخالقه، لا سيما صلاحه ومحبته.

ثانياً: الجهل والظن الكامن في القلب بأن الإنسان هو مصدر حياته، وإن الطعام هو مصدر وجوده، وهو ما حذَّرنا منه الرب يسوع عندما نهانا عن أن نهتم بما نأكل، أو بما نلبس، وغيرها من الأمور التي نظن أنها مصدر حياتنا (مت ٦ : ٢٦ - ٣٢). وعندما وجَّه نظر القلب نحو عناية الله بكل المخلوقات مثل زنابق الحقل وطيور السماء، فقد كان يكشف عن جهل الإنسان بالله، وهو أول علامات الموت الروحي؛

---

(١) راجع صلاة القداس الإلهي "لم تتركنا عنك إلى الانقضاء"، و"أرسلت الأنبياء من أجلي أنا المريض".

لأن هذا الخلود الكاذب هو مصدر الكبرياء. فإن كان الله هو مصدر حياتنا، فلماذا نتكبَّر؟ وما هو السلطان الذي فينا، الذي يجعلنا نقرر مصائر غيرنا من البشر؟

ثالثاً: الظن بأن "التعدِّي" يقودنا نحو وجودٍ أفضل، وحياةٍ أفضل يعطي لها النمو.

رابعاً: الشك في حكمة وصايا الله، واعتبارها ضعف وجهل، وإن الخير الذي يحدده الإنسان لنفسه هو أفضل من الخير الذي يأتي من الشركة. في الوقت الذي يكون فيه اختيار الخير والشر حسب شهوات وغرور القلب هو "التعدِّي".

هل تريد أيها الأخ المحبوب أن تعرف أكثر من ذلك؟ أقول لك في اختصار شديد، وفي عبارةٍ واحدة: الموت الروحي هو الجحيم، والجحيم هو حياةٌ إنسانيةً أُسِرَت لغاياتٍ متباينة ومتفرقة، لا تنمو، ولا ترى، ولا تذوق ما هو أبعد من الجسد، أو أبعد من هذه الغايات المتفرقة التي تمزِّق الكيان الإنساني.

مثال عن الموت الروحي هنا على الأرض:

٨- إذا كنت أنت نفسك، أو إذا كنت قد راقبت إنساناً - غرق في هاوية الكراهية والبغضة — كان له عدوٌ يريد القضاء عليه أو الانتصار عليه، فإنك تجد أن هذا العدو قد صار محور الحياة، بل أسَرَ الحياة كما لو كان هو الوجود كله.

وإذا أراد الإنسان أن يفلت من هذا الجحيم، فإنه يغرق في لجة الغضب، والعجيب حقاً أنه بينما يريد الفكاك والحرية، ترده الكبرياء إلى هاوية الكراهية. هذه هي صورة مصغَّرة زمانية عن الموت الروحي أو الجحيم الصغير الذي لا يتركه الرب، بل يترل إليه، فكما قال واحدٌ من الشيوخ: إن الجحيم هو قلب الإنسان نفسه.

لماذا نقول إن للشيطان سلطان الموت؟

٩- لم يُعطِ الربُ خالقنا للشيطان إي سلطان علينا، ولا حتى على الخليقة غير العاقلة؛ لأنه لما طلب الإذن بالدخول في الخنازير، كان سقوط هؤلاء في البحيرة هو رمز نهاية قوة وسلطان الشيطان. وحتى أيوب البار، فقد جُرِّبَ في كل شيء،

ولكن الله لم يعطِ للمُجَرِّب أن يكون له سلطانٌ على عقل أيوب. فكيف صار للشيطان سلطان الموت؟ أولاً جمعت الغواية الإنسان والشيطان معاً، ولما سقط عدو جنسنا من رتبته، أسقط الإنسانَ؛ لأنه أدرك أن الإنسان سوف يأخذ ميراثه. ولذلك تجمع شبكة الغواية التي يدخلها الغافلون الشيطان والبشر معاً، بل وحتى الحكماء من البشر الذين يتكلون على حكمة هذا العالم، متى سقطوا صاروا في شركةٍ مع الشيطان، وصار هو مركز الغواية، وصارت الغواية تجمع هؤلاء معاً، ولكن رغم ذلك يبقى قلب الإنسان الغارق في خطاياه بعيداً عن سلطان وسطوة العدو الذي لا يعرف ما يدور في داخلنا من صراع، وإنما فقط يستطيع أن "يخمِّن" ذلك بمراقبة انفعالاتنا وتصرفاتنا الخارجية التي تكشف عن طبيعة ما يحدث في داخلنا.

أيها الأخ المبارك، إن الغواية هي الطُعم الذي يوضع في الصنارة لنا، لكي يمسكنا عدو الخير ويصطادنا بواسطته.

علامات التوبة الحقيقية:

١٠- الالتصاق بالرب وطلب مشورته من الأسفار المقدسة والمعلمين الروحيين، وسماع صوت الروح القدس في القلب، وتفضيل وصايا الله على حكمة العالم.

١١- سيادة المحبة على كل فكر وفعل وقول، وهذا نراه في سرعة غفران الإساءة ورد الإهانة بروح يسوع.

١٢- عدم تحول القلب عن وصايا يسوع، وحتى إذا مرت فترات تردد، وصرخ الإنسان طالباً نعمة الرب وقوته، فإن الصراخ هو من علامات التوبة. والاعتراف بالضعف ضروري.

١٣- تفضيل شريعة الصليب والمصلوب على كل شيء في الحياة، حتى الحياة نفسها، وحساب كل شيء – كما قال الرسول – "نفاية".

١٤- كراهية شديدة للخطية، وتواضع في معاملة الخطاة؛ لأن كراهية الخطية بدون تواضع هي دفاعٌ عن سيرتنا، وطلبُ مديحٍ مستتر، ومحاولة الظهور بأننا أبرار بمهاجمة الخطاة والخطية علانيةً.

هل أعلنت قيامة الرب

شيئاً عن اتحاد النفس بالجسد؟

١٥– عندما قام الرب من بين الأموات، وصار "باكورة الراقدين"، حَفِظَ جراحات الصليب في جسده، أي المسامير وطعنة الحربة، وهي تلك التي عاينها توما الرسول وهتف "ربي وإلهي". لقد أقام الرب جسده بدون فساد، ولكن كعلامة على محبته الأزلية لنا أبقى على جراحات الصليب، تلك التي قبلها بإرادته وحسب محبته للبشر. هذه الجروح، بقيت لكي تعلن لنا ثلاثة أشياء هامة:

أولاً: لقد تجلَّى الرب قبل موته المحيي على جبل تابور أمام تلاميذه، وبذلك كشف لنا عن مجده الإلهي الذي احتجب في جسده، وسطع نوه الإلهي معلناً بهاء الحياة الإلهية التي سوف تعطى لنا في القيامة، والتي أخذناها هنا في الزمان الحاضر، ولكن تبقى مستترةً إلى أن يأتي يوم تجديد الخليقة. هذا البهاء الذي ظهر علانيةً، ظهر في جسده المحيي معلناً لنا ما سوف يحدث لأجسادنا عندما نقوم فيه في اليوم الأخير، وهو ذات البهاء الذي تعاينه النفس ويظهر أحياناً بشكلٍ منظور في أجساد بعض القديسين مثل مكسيموس ودوماديوس، والأنبا أرسانيوس ويوحنا القصير وغيرهم. فقد تجلَّى الأب مكاريوس أمامنا بشكلٍ منظور في أثناء استدعاء الروح القدس حتى أن الأخ تيموثاؤس ظن أن ناراً قد اشتعلت في الهيكل؛ لأن مجد الرب يسوع المسيح ظهر علانيةً في جسده.

ثانياً: حَفِظَ الرب جروح الصليب لكي يؤكد محبته، ولكن أيضاً لكي يؤكد لنا أن المحبة – بشكل خاص – تحول الجسد إلى ذات الرؤية التي تراها النفس ويستوعبها القلب وتثبت فيه. إن ما يحدث لنا من تحول داخلي، ينعكس، بل يشع بشكل منظور؛ لأن محبته لنا كامنة في جوهره الإلهي، وهي ذات المحبة التي ظلت تشفي

المرضى، وتطرد الشياطين، وتحرر المأسورين. وعندما قَبِلَ الصليب بإرادته وبسبب محبته للآب ولنا، ترك الجروح مُعلناً إن ما في الداخل في القلب، يظهر بشكلٍ علنيٍ ومنظور في كل أعضاء الجسد؛ لأنه بإرادته قَبِلَ المسامير في يديه، والإرادة واليدين هما واحـــد. ولأنه ثابتٌ في محبته، قَبِلَ المسامير في قدميه؛ لأن الإنسان يقف على قدميه، والقدمين والرجلين هما الشكل المنظور للبقاء والحركة، فقد قيَّد حركته بالمحبة، أو بمعـــنى أدق، ثبَّت حركته علناً وبشكلٍ منظور بمسامير القدمين. وهكذا أيضاً توَّج فكـــره بتـــاج الشوك؛ لأنه قَبِلَ أن يغسل آثامنا وجراحنا الروحية، مؤكداً — بتاج الشوك — أنه توَّج الطبيب والشافي. وهكذا أيضاً جُرِحَ في جنبه سرياً حيث الضلع الذي أُخِـــذَت منـــه حواء رمز الكنيسة والتي وُلِدَت منه بالماء والدم.

نحن نولد روحياً من جراح الرب ولادةً تؤكد لنا أن المغفرةَ ليســـت إعلانـــاً بالكلمة فقط، بل بحياةٍ تُعطى لنا تغلب الحياة القديمة البالية. هكذا عندما نتأمل جراح الرب، نعاين أن ما يحدث للنفس، وكذلك التحول الداخلي في القلب، ذلك التحول الخفي، يؤكد لنا أننا ننال علامات القيامة ونحن هنا في "جسد المـــوت"، أي الجســـد الذي يفنى حسب أصله الترابي الذي أُخِذَ منه؛ لأن فناء الجسد الطبيعي هـــو مقدمـــة قيامته؛ لأن شكله الطبيعي يفنى بالموت لكي يقوم حسب شكل المســـيح. وتركيـــب الأعضاء البالي ينحل؛ لأنه يُزرَعُ في هوانٍ ويقام في مجدٍ حســـب كلمـــات الرســـول (١كور ١٥ : ٤٢– ٤٤)، وهو ما نحسه روحياً حسب روح يســـوع أي الـــروح القدس الذي أقامه من الأموات.

لذلك ذَكِّر الإخوة بأن انحلال الجسد وعودته إلى التراب هو بداية القيامـــة؛ لأنه يعود إلى التراب ليس بلعنة الموت، بل بقوة القيامة، لأن لعنة الموت معناها عـــدم القيامة، أمَّا نعمة الرب، نعمة القيامة فهي حياة أبدية في يسوع المسيح ابن إلهنـــا الآب السماوي.

ثالثاً: وبسبب تجسُّد الرب وموته وقيامته، ثبَّت لنا وأعلن لنا سر اتحاد النفس بالجسد؛ لأنه جاء لكي يخلصنا ويحملنا مثل خرافٍ صغار في أحضانه، معلنـــاً لنـــا أن النفس هي الأصل، وهي قاعدة (جوهر) الوجود الإنساني، وإن الجسد هو صـــورتها

الخارجية المنظورة، ذلك لأنه جدد النفس وردها إلى صورته السماوية التي حُددت في بشارة الإنجيل. فقد أعلن أن التجديد هو روحيٌّ، وأنه يكمل في يوم القيامة. وأعلن لنا مراحل التجديد مؤكداً لنا أولوية النفس بالميلاد الجديد في مياة المعمودية التي يغتسل فيها الجسد أيضاً من لعنة الموت منتظراً قيامته لمجد ابن الله. وأعلن لنا أيضاً سُكنى الروح القدس في النفس والجسد معطياً للنفس الدور الأول مقدِّساً الجسد في مسحة الميرون التي لا تفنى رغم انحلال الجسد، ولذلك نحن نكرِّم أجساد الشهداء والقديسين الذين أعلنوا لنا الرب يسوع بالتعليم والشهادة والسلوك الصالح المقدس، وهم بذلك آنيةٌ حيةٌ للرب وهيكل الروح القدس الذي لا يفارق حتى ما يبقى من عظام، بل لأن الكل خُتِمَ بالروح القدس، أي بشكل الرب يسوع المجيد، يبقى الكل مثل بذرةٍ تنتظر يوم مجد الرب يسوع الذي سوف يغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده؛ لأنه استطاع أن يُخضِع له كل الأشياء (فليبي ٣: ٢١).

وماذا يمكن أن نقول عن السر الفائق المجيد، سر بذل محبته، فقد سبق وكتبنا الكثير، لكن العبرة هي في تذوُّق صلاح الرب وإحساناته لنا، وإعلان شفاء وتجديد كل كياننا بالاتحاد به في سر مجد محبته، سر جسده ودمه.

هل انحلال وحدة الكيان الإنساني، وعودة الجسد إلى التراب هو من بقايا الخطية؟

١٦- هزم الرب الشيطان بطرده وأسره في الجحيم. وهزم الموت على الصليب. أعلن الغفران وهو معلقٌ على خشبة الصليب، وفتح الفردوس للص اليمين، وأقام الموتى، وفتَّح أعين العميان، وشفى المرضى. فهل بعد كل هذا يمكن لنا أنه توجد بقايا للخطية، لقد محا كل شيء، وجدد كل شيء، وردنا بميلادٍ سماوي إلى الحياة السماوية. فكيف يجوز لنا أن نتكلم عن بقايا الخطية؟ لقد دفعت الخطية أجرها لنا، وهي الموت، وجاء الرب وهزم الموت، فلماذا لا ننال التجديد كاملاً؟ ولماذا تنحل وحدة الكيان الإنساني ويعود الجسد إلى تراب الأرض؟

لقد أجاب الرسول على هذا في نهاية الفصل الثاني من رسالته إلى رومية (٨ :

٢١)، حيث أعلن بوضوح أن التجديد الشامل لكل الخليقة سوف يتم في اليوم الأخير، وإننا نحن الذين نلنا الفداء في إنساننا الداخلي "نئن متوقعين فداء أجسادنا" (راجع رو ٨ : ٢٣)؛ لأننا لن نتجدد جسدياً إلاَّ مع باقي الخليقة؛ لأن الجسد الذي يحيا بالأكل من ثمار الأرض، وعلى الرغم من أنه يأكل طعام الحياة الأبدية، جسد الرب ودمه، إلاَّ أنه يأخذ "العربون"، أي القيامة حسب مواعيد الله. هنا نحن نحيا حياةً في موت الجسد؛ لأن النظام الكوني لم يتجدد بعد، ولا يزال يئن على رجاء استعلان "حرية مجد أولاد الله"، لذلك لا يجب أن نفشل في انتظار قيامة الأموات، بل بصبرٍ في العمل الصالح ننتظر أن يأتي الرب والمخلص ويجدد النظام الكوني.

كيف رفع الرب لعنة الموت؟ وكيف لا نزال نموت ونُدفن؟

١٧- ما معنى كلمة "لعنة"؟ حسب كلمات الروح القدس في الأسفار الإلهية، اللعنة هي ما يرفض الله أن يعطي له البقاء والكثرة، أي الزيادة حسب كلمات المزمور (١٠٩ : ١٨). وقيامة الرب بجسده الذي أخذه من العذراء القديسة مريم، والذي مُجِّدَ بقوة القيامة تؤكد لنا أن اللعنة قد رُفِعَت، بل أبيدت تماماً؛ لأن الرب يسوع وعدنا بالقيامة، فكيف نقوم إذا كانت لعنة الموت باقية.

١٨- لقد حوَّل الربُ الموتَ، وهو ثمرة الخطية، وجدده عندما غيَّره من قوة فناء وانحلال إلى قوةٍ تخدم تجديد الخليقة؛ لأن انحلال القديم، هو ميلادٌ للجديد. ولذلك نحن لا نموت كما يموت غير المؤمنين، بل نموت في الرب ونرقد في الرب، أي أن موتنا يحسب لنا خلاصاً، أمَّا موت الأشرار فهو دينونة.

والمسيحي يموت مرةً واحدة عندما يُصلب ويُدفن مع المسيح، ولا حظ أن الرسول لم يقل إن المسيح يُدفن معنا، بل نحن "دُفنا فيه ومعه وبه". **فيه**؛ لأنه أخذ طبيعتنا. و**معه**؛ لأنه البكر وباكورة الراقدين، ونحن سوف نتبعه. و**به**؛ لأنه أباد قوة القبر.

ثبِّت الإخوة لكي لا يقعوا ضحية حزن العالم، ولكي لا يبكوا على الراقدين مثل غير المؤمنين، أو يقيموا مناحة على الموتى من أجل إعلان يأسهم من رحمة الرب.

ومن يبكِ متوجعاً، ليس كمن يبكِ يأساً وخوفاً؛ لأننا نفتقد الإخوة والأخوات الأحباء الذين رقدوا. ونحن نبكي أحياناً، ولكننا نتعزى بالإيمان بأهم مع الرب.

وهكذا نحن نموت ونُدفن مع الرب، ولكن تبقى حياته فينا؛ لأنه على الصليب كان الميت الحي، وفي القبر كان راقداً لكي يحطِّم الهاوية التي نزلت إليها نفسه الإنسانية متحدةً بلاهوته، نزلت بقوة اتحادها باللاهوت، أي دخل الرب الجحيم بقوته معلنا نهاية قوة الجحيم. كان الرب في الهاوية حسب كلمات المزمور (١٣٩ : ٨)، ولكنه الآن يدخل الهاوية بنفسه الإنسانية، دخلها لكي يبيد قوة الجحيم، ولكي يُخرج الأسرى من الظلمات، ويفتح لهم باب الفردوس.

١٩– هناك فرقٌ بين أن يكون الرب في الهاوية بقوة أُلوهيته، وأن يكون في الهاوية بنفسه الإنسانية؛ لأن قوة الابن كخالق ليست هي موضوع السؤال، ولكن وجود الرب بنفسه الإنسانية المتحدة بأُقنومه الإلهي هي التي تحرك فينا الحمد والتمجيد؛ لأنه لم يترك مكاناً إلاَّ وأعلن فيه الخلاص: في السماء من فوق، وعلى الأرض من تحت، وفي الهاوية أيضاً، لكنه نزل لكي يعطي المؤمنين قوة الاقتحام الذي أكمله، ولكي يغلق "فم الهاوية" إلى الأبد. أمَّا قوة الاقتحام، فهي في نفس كل من نال سر المعمودية؛ لأننا "دُفنا معه"، ولأنه "سبى الجحيم"، وبذلك صار لنفوسنا ذات القوة القادرة على أن تسبي "كل فكر إلى طاعة المسيح" (٢كور ١٠ : ١٥)، وأن تحول كل قوة أخرى إلى "الأسر" الذي أعطاه لنا الرب بموته المحيي.

لماذا يتأخَّر التجديد إلى اليوم الأخير؟

٢٠– حسبما أشرنا من قبل، تظل الحياة تعمل في الموت إلى يوم القيامة العامة، وهو اليوم الذي سوف يُعلن فيه كل ما كان "خفياً" ومستتراً عن عيوننا، وهو كائنٌ معنا ولكننا لا نراه، وإنما نحسه بالإيمان، أي برؤيةٍ داخليةٍ إلى اليوم الذي عيَّنه الرب لكي يعتق فيه الكل مجدداً الكل وهو آخر "مراحل" التدبير.

كيف نعالج عودتنا إلى خطيةٍ معينةٍ؟

وهل التأديب نافع؟

٢١- كما ذكرنا من قبل، العودةُ إلى خطيةٍ معينةٍ هي ضعف في محبتنا لله، والضعف لا يعالج بالتأديب، أي التأديب الذي يجعل كل من يقبله "حقيراً" في عيني نفسه؛ لأن هذا هو أول الدرجات الهابطة إلى بئر "صغر النفس". نحن نحتاج إلى محبة وحكمة المسيح الذي قيل عنه أنه لم يطفئ "فتيلة مدخنة"، و لم يكسر عوداً يكاد أن ينشط، بل هو المعلم والمعزي الذي يترك الـ ٩٩ ويذهب إلى الواحد الضال. مَن لا يعرف ذلك لا يجب أن يؤتَمَن على خدمة المحتاجين إلى التعليم؛ لأننا لو قلنا "خدمة الخطاة"، فهذا يشملني ويشملك ويشمل الدير كله؛ لأننا جميعاً خطاة، ولا يوجد خاطئ أكبر وخاطئ أصغر، نحن جميعاً "عبيد بطَّالون"؛ لأننا خوفاً من العقاب وطمعاً في كسبٍ نتوب، وهو ما يجعل توبتنا ناقصةً نار المحبة، ولكن الله الصالح والرحيم لا يرفض هذه التوبة.

والتأديب ينفع الذين لهم أشواقٌ عالية، أمَّا الذين ضربهم اليأس والخوف وسقطوا في "صِغَر القلب"، فهؤلاء يموتون روحياً، وفي بطءٍ شديد إذا وضعنا عليهم تأديبات.

كما يحرِّك التأديب متواضع القلب طالباً الخلاص من الله. أمَّا الذي سقط عدة مرات و لم يتُب، فإن ضعف تواضعه يقوده إلى العصيان والتمرُّد.

ولا يجب أن نخلط بين التأديب والعقوبة؛ لأن الأول هو دواءٌ ينفع مع البعض. أمَّا الثانية فهي تجلب الأوجاع وتزيد من المرض. والتأديب لا يكون من أجل مكسبٍ للأب، أو من أجل منفعة وقتية، ولا يقوم على المنع والنهي، بل مَن لا يعرف التواضع، يُلزم بخدمةٍ تعلِّمه التواضع، مثل الأب البطريرك الذي طلب الشفاء من الشهوة

الجنسية، فكان تأديبه هو تنظيف قلالي الشيوخ، وكان تأديب يوحنا القصير هو سقي عود شجرة يابس، وكان تأديب مرقس هو الاهتمام بطاحونة الدير وإعداد الخبز، وذلك حتى تنمو محبته للإخوة وتموت فيه لذة الهجوم على الذين يختلفون معه في الرأي.

وتأديب مَن يُسرع إلى سلاح الغضب، هو الأعمال الجسدانية مثل الزراعة وري الأرض وتوزيع المياه (مياه الشُرب) على قلالي المتوحِّدين. هذه كلها وأمثالها ليست عقوبات، بل أعمال نافعة تُعطي للإخوة – الذين يعانون من ضعفاتٍ معينة — مكانةً في الشركة كخدام نافعين، وليس كأعضاء ميتة أو ضعيفة أو ناقصة.

لقد أدَّب الأب ديونيسيوس الأخ أرميا الذي يحسن القراءة بأن يمر على قلالي الإخوة الذين لم يتعلموا القراءة الجيدة لكي يدرِّبهم على حُسن القراءة باللفظ اليوناني، وهو ما جعله ينمو معنا كخادمٍ أمين. وعندما شكوت للأب دانيال كثرة انشغالي بالإخوة المبتدئين، طلب مني أنْ أنسخ له رسائل القديس أنطونيوس، وأن أُشرف على المطبخ. ولما جاء عندنا الأخ مينا الذي اتُهم بقتل طفلٍ في المدرسة، ولم تثبُت عليه الجريمة، أعطاه الأب ديونيسيوس خدمة تنظيف الكنيسة وترتيب الخدمات وتوزيع أنصبة الآباء المعتكفين، وبعد ثلاث سنوات عاد إلى خدمة تعليم الأطفال.

هذه نماذج من التأديبات التي عرفتها أو سمعت عنها، وهي كلها من أجل تأكيد المحبة والاحتفاظ بخدمة الإخوة وعدم قتل كرامتهم؛ لأننا عندما ننزع كرامة مَن يسقط، إنما نلقى بهم في بئر "صغر القلب"، وبذلك نُطوِّح بهم في لجة الشك والعصيان وفقدان (الهدف) أي غاية الوجود؛ لأننا في المسيح ننال كرامة البنوة، ويعاملنا الآب السماوي كأبناء له، ويعطي لنا الآب السماوي كرامة البنين، لأن الآباء الرسل عندما سمعوا "لا أعود أسميكم بعدُ عبيداً"، كانوا — من فم الابن الوحيد — قد نالوا كرامة البنين، ومع ذلك فقد جحد بطرس وأنكر بعد أن عاين المعجزات وتجلِّي الرب على جبل طابور، وهرب الباقون ليلة القبض عليه في البستان، ومع ذلك لم يعاتب الرب أياً منهم، ولا وبَّخ حتى توما، بل قال له – بحنانٍ شديد — "لأنك رأيتني يا توما آمنت" (يو ٢٠ : ٢٩)، وكأنه يذكِّره بما رآه من قبل بمعجزة إقامة لعازر وغيرها. والآن جاء

الرب في اليوم الثامن، يوم قيامته، وربما خصيصاً لأجل توما. لذلك ليكن لنا وداعة المسيح وحلمه، وأن نعطي الدواء الذي يشفي لا السكين الذي يقطع ويبتُر، مع أن الدواء هو حسب حكمة وتقدير الأب الروحي، إلاَّ أن الأب الروحي خاضع لحكمة الإنجيل، ويعمل حسب تعليم الرب محب الخطاة، وكأبٍ يضع أمام عينيه أن "المُعترف" هو "وريثٌ" معه في نفس الملكوت، ويقف معه على قدمِ المساواة كابنٍ للآب، وأخٍ للأخ البِكر ربنا يسوع المسيح.

٢٢- أمَّا العودةُ إلى خطيةٍ معينةٍ، فليس لدينا قانون ولا تعليم يمكن أن نقدِّمه، ولذلك أكتب لكم – دون أي تخصيص – إن المأسور لخطيةٍ معينة، قد لا يحتاجُ إلى تأديب كنسي، وإنما قد يحتاجُ إلى تعزية وإلى تعليم قوي عن محبة الله للخطاة، وإلى ما يعيد إليه كرامته؛ لأن استصغار الإنسان لنفسه يدفعه للسقوط، وعدم إدراك كرامة ومجد البنوة. وقد لا يمكن علاجه بالتأديب، بل بالصلاة والتعليم. وحسنٌ أن ينقل الأب الروحي ابنه – بالتعليم – إلى تأمُّل السماويات والهذيذ في حياة الرب يسوع نفسه لكي تقوى شركته في الرب، ويجد عزاءً في الرب.

عموماً – دون تخصيص – علاج السقطات المتكررة في خطية معينة لا يعالج إلاَّ بحكمة الإنجيل، وحفظ كرامة المعترف وحثه على الإقبال على دراسة الأسفار والتفوق في خدمةٍ معينة تردُ إليه كرامته لكي يعيد النظر في سلوكه، ولكي تقوى إرادته. لكن هذا كله هو سياج لفردوس النعمة، أمَّا الفردوس نفسه فهو غرس الرب وفلاحة الروح القدس. الرب يسوع المسيح يعطي لنا أن نعبر بحر هذا العالم في هدوءٍ وسلام.

ماذا يحدث لنعمة المعمودية،

إذا عُدنا للخطية واستهان الإنسان بكرامة البنوة؟

٢٣- المعمودية "ختم لا ينحل"، ولذلك تُعطى مرةً واحدة؛ لأننا نولد مـــرة واحدة من الآب بابنه يسوع المسيح وبنعمة الروح القدس.

ونحن لا نعيد معمودية المرتدِّين، بل نقبل توبتهم. ولا نعيد المعمودية بالمرة للذين نالوا هذا السر في الكنيسة الجامعة. يقول الرسول: إن النعمة ليست مثل الخطية، ولا الهبة مثل السقوط، ولا يمكن مقارنة آدم الأول بآدم الأخير الرب يسوع المسيح. وقد لخَّـــص الرسول التعليم كله في عبارة واحدة وهي أن "عطية الله بلا ندامة" (رو ١١ : ٢٩)؛ لأن الرب يسوع لا يندم على ما أعطاه لنا من عطايا مثل المغفرة، وميراث الملكوت، وسُكنى الروح القدس، والشركة في جسده الإلهي ودمه الكريم. وإذا عاد الإنسان إلى سيرته الأولى وارتد، فإن خطاياه الأولى لا تحسب عليه؛ لأننا عندما نسمع قول الرسول أننـــا ســـوف نعطي حساباً (رو ١٤ : ١٢، ١بط ٤ : ٥)، فإن تعليم الآباء الرسل مُلخَّص في عبـــارة واحدة "كرحمتك يا رب وليس كخطايانا" (القداس الإلهي). وعندما يتوب المرتد، فـــإن خطاياه لا تحسب عليه؛ لأن نعمة غفران الخطايا تمحو كل ما سبق، ولذلك يقول الرسول عن الأُمم - بشكل عام — إن الله لم يحسب لهم خطاياهم السابقة (رو ٣ : ٢٥) كمانع يمنع عنهم نعمة (الإنجيل) وبشارة الخلاص. والذين يأتون إلى المعمودية، لا يأتون كـــأبرار وقدِّيسين، بل كخطاة وينالون غفران خطاياهم. والرب لا يحسب لنا خطايانا الســـابقة بالمرة أي تلك التي غُفِرت، والحساب ليس على أعداد وكمية الخطايا، بل على ســـلوك المحبة، ولذلك الحساب على الأعمال موجز في كلمة واحد "حسب أعماله"، أي الغايـــة التي كنا نسعى إليها، والخدمة التي اخترناها لكي نقدمها للرب وللإخوة والبشر جميعـــاً؛ لأن أعمال المحبة لها هدف واحد، وهو "المحبة"، ولذلك قال الـــرب كنـــت جوعانـــاً،

وعطشاناً ومريضاً ومسجوناً، وهو كل هؤلاء؛ لأن كل هؤلاء هم إخوته بسبب تجسُّده.

٢٤– أمَّا الاستهانة بكرامة البنوة، فهي أولاً مثل خطية عيسو الذي باع "البكورية" بأكلة عدس، والتي وصفها الرسول بأنها "استباحة" (عب ١٢ : ١٦)؛ لأن إزالة الفوارق بين الخير والشر، والمقدَّس والنجس، والسمائي والأرضي تهدم الحياة الداخلية، وتقوِّض الفوارق بين ما هو كريم وصالح وما هو غير لائق ويحط من كرامة وقدر الإنسان. تأمَّل ماذا يحدث لو أن إنساناً عاش في قصرٍ ملوكي، أو مثل الابن الشاطر (الضال) الذي بعد كرامته في بيت أبيه، صار يأكل مع الخنازير، لكنه عندما عاد رده أبيه إلى كرامته الأولى، أمَّا الذي لا يعود إلى سيرة محبته الأولى، فإن الإنذار والتهديد لا يخلصه، بل أحياناً يقود إلى النفاق وإلى التستر حتى لا تنكشف خطاياه.

٢٥– لا يعرف "المستبيح" ولا يحس بالأمور السمائية، ولا بالفرق بين الخالق والمخلوق؛ لأنه لا يدرك أن له قلباً مملوءاً بأشواقٍ طبيعيةٍ غير تلك التي يضعها الروح القدس في القلب؛ لأن الأولى هي عطش الطبيعة المخلوقة لخالقها، أمَّا الثانية فهي شوق الخالق للمخلوق، ذلك الشوق وتلك المحبة الجارفة التي تجعل الله يقبل أن يتجسَّد، وأن يصير كواحدٍ منا ويحيا بيننا.

الإيمان يلد المحبة، والمحبة تروي الإيمان. والإيمان – بالمحبة وباستنارة الروح القدس الذي ينير إدراك الإنسان – تنمو المعرفة وتثمر، لكن المعرفة تفتح إدراك الإنسان وتحرر الإرادة والقلب من سطوة الجهل، أمَّا هبة الحياة الجديدة، فهي تأتي من الله الذي يعطينا حياة ابنه، ومسحته لكي نرث معه وبه الملكوت الذي لا يفنى.

٢٦– يحتاج "المستبيح" إلى معلِّم كنسي مدَرَّب في طريق الرب لكي ينيره بكلمة التعليم، ويفتح له باب الحياة الأبدية، ويقوده إلى ينبوع مياة الحياة، الروح القدس.

ما هو الاعتقاد المستقيم (الأرثوذكسي)

عن نزول الرب إلى الجحيم؟

٢٧- حسناً نعترف أن الرب سبى الجحيمَ سبياً، وأباد قوهما عندما مات على الصليب. إن إيماننا الأرثوذكسي ليس هو إيمان العامة من الناس الذين عندما يسمعون كلمات الوحي المقدَّس عن السماء من فوق، والأرض من تحت، والهاوية تحت الأرض، يظنون أن الأرواح أو نفوس الناس تنزل في حفرةٍ مظلمةٍ تحت الأرض. ولكن لا يوجد في سفر الخليقة الأولى (سفر التكوين) أيةُ إشارةٍ إلى "الجحيم" كمكان خلقه الله لكي يسجن فيه أرواح البشر، ولذلك فالقبر هو الهاوية، والهاوية هي الجحيم. وعندما اعتقد آبائنا القدماء أن الهاوية هي العالم السفلي الغربي، حيث الظلمة، سكن الرهبان في غرب النيل إيماناً منهم بأن الكون كله هو إعلان عن صلاح الله ومحبته، وإن الشاطئ الغربي والصحراء هي الإسقيط أو شيهيت، وليست مكان سجن أرواح الناس.

و"تحت الأرض" هو تعبيرٌ دقيق يؤكد لنا أن الذين يغادرون هذه الحياة ويفارقون الجسد، إنما يذهبون — وتحت لعنة الموت — إلى ما هو خارج النظام الكوني الذي خلقه الله، أي مثل النفاية أو مكان تجميع الأشياء غير النافعة، وهو مكان لا وجود له في خليقة الله، تماماً كما لا يوجد في كل قرية أو مدينة مكانٌ تجمع فيه القمامة، خلقه الله، وإنما خلقه الإنسان عندما رتَّب حياته ووجوده على هذا النظام الذي خلقه لكي يواجه احتياجاته ومطالب الحياة.

ولأنه لا يوجد نص واضح في الأسفار المقدسة يصرِّح بأن الله خلق الجحيم، استطعنا أن ندرك من تعليم الكنيسة الجامعة أن الرب نزل إلى الجحيم عندما صُلِبَ لكي يبدد ما جمَّعه الإنسان لنفسه، ولكي يرد هؤلاء الذين كانوا أسرى لعنة الموت إلى

الحياة ويدخلهم إلى الفردوس.

وحتى عندما نسمع عن الفردوس، فإن الفردوس ليس مكاناً خلقه الله؛ لأنه لا يوجد في النظام الكوني في الأيام الستة الأولى، مكاناً اسمه الفردوس، ولا يجب أن يختلط هذا بما دوَّنه سفر الخليقة الأولى عن "جنة عدن"؛ لأنها مكان خلق آدم الأول، أمَّا الفردوس فقد سمعنا به لأول مرة من فم الرب يسوع عندما بشَّر اللص اليمين، وقال له: "اليوم تكون معي في الفردوس" مؤكداً أن لعنة الموت سوف تباد بقوته، وإنه سوف يحمل معه اللص، أي نفسه الإنسانية إلى راحةٍ وعزاءٍ وسلام في الكون؛ لأنه سيرد له الحياة، وسوف يكون في انتظاره عندما يموت؛ لأنَّ الرب يسوع مات قبل اللص، ولأنه مثل الملائكة والقوات السمائية سوف يجد نفسه مع ابن الله في تسبيح وتمجيد مع القوات السماوية، وهو ما يسمى عند العامة "السماء"، أي السماء من فوق. وهي ليست من فوق ولا في أي بُعد من أبعاد الحياة المادية المنظورة، بل "فوق" تعني ما يعلو على إدراك الحواس الجسدانية؛ لأننا عندما نسمع الرب يقول:"المولود من فوق ..." (يو ٣ : ٣)، فهو لا يقصد مكاناً يعلو على الأرض، بل كما ذكر نفس الإنجيل "من الله".

ومع أننا نحتاج إلى أن نذكِّر عامة الناس بهذه الحقائق، إلاَّ أنه يجب أن نترك السُّذج حسب تصوراتهم حتى لا يفقدوا سلامهم المبني على تصورات عقلية ليس لها وجود في التعليم المستقيم (الأرثوذكسي)، ولذلك يجب نقل هؤلاء تدريجياً من تصوُّر الأبعاد المنظورة إلى تصوُّرٍ بلا أبعاد، وهذا يمكن بواسطة التعليم الذي ينقل فكر الإنسان إلى ما هو فوق، أي ما يعلو على الحواس.

٢٨- أُكرر ما سبق وذكرته، إننا لا نؤمن بأن الله خلق مكاناً لتعذيب البشر؛ لأنه لا يوجد نص واحد في كل الأسفار يدعونا إلى هذا الاعتقاد الذي لا يتفق مع صلاح الله، ولا مع ما يتصوَّره العامة من الناس عن عدل الله الذي خلق مكاناً لراحة المؤمنين، وسجناً لعذاب الأشرار؛ لأن هذا تصوُّر مادي مبني على ما نعرفه المدن والحضارة التي لا تضع في اعتبارها أن القصر والسجن لا يعبِّر بالمرة عن عدل الله، وإن القاضي والقانون والسجَّان لا ينطبق على السماء، وإنما هو تصوُّر أرضي لا يخدم بشارة الإنجيل.

وحتى عندما نسمع في سفر الرؤيا عن بحيرة النار والكبريت (رؤ ١٩ : ٢٠)، وغيرها من صور مادية، فلأننا نعرف أن الشيطان ذو طبيعة روحانية مظلمة لا تؤثر فيها النار المادية، أي تلك التي تشتعل في الأشياء وتحرق ما هو منظور، فلذلك السبب - أي أن للقوات الشريرة طبيعة غير مادية — فرضَ علينا الإيمان بطبيعة الشيطان أن نقول إنها استعارة وتشبيه يقرِّب لنا حقيقة حالة القوات الشريرة والأشرار عندما يبتعدون عن الله.

وعندما تذكر الأناجيل "جهنم"، فإنها تؤكد لنا أن ذلك هو تصوُّر قلب الإنسان الفاسد بشهوات وغرور الخطية؛ لأنه بسبب التعدِّي وبسبب الابتعاد عن الشركة، أظلم فيه الإدراك الروحي وصار يتصور الله كما يتصور القساة والعتاة من البشر، ولكن الله غير ذلك؛ لأن الإنسان الذي يُفسد حياته يضع نفسه بعيداً عن صلاح الله ولا يرى إلاَّ الظلمة والشر الذي فيه، أمَّا نحن الذين استنارت قلوبنا بنور الإنجيل، فإننا "سنراه كما هو" (١ يو ٣ : ٢). وعندما نراه، سوف نرى مجده، ونتغيَّر إلى ذات صورة الابن المجيدة.

من هذا نعرف أن رؤية الأبرار بنور المحبة، ليست مثل رؤية الأشرار بظلمة الخطية. أمَّا كيف يبقى الأشرار مثل "النفاية" بعيداً عن السماء الجديدة والأرض الجديدة، فهذا ما لا نعرفه؛ لأنه لم يحدث بعد، ولأنه محفوظ لنا في يسوع المسيح ربنا.

٢٩- لكننا يجب أن ندرك أنه يوجد يوم للدينونة، وإن الأبرار لهم ميراث الملكوت، والأشرار لهم "الظلمة الخارجية" كما قال الرب. ولكن يجب أن نفهم هذه الأمور على قدر ما تؤكده الأسفار المقدسة، وليس حسب إدراكنا البشري فقط.

أمَّا ما هو ضروري لنا في هذه الأيام، فهو أن نحفظ الإيمان ونسلك حسب القداسة حاملين صليب ربنا يسوع المسيح، وأن نسأل الروح القدس لكي ينير بصائرنا ونكشف ما في قلوبنا للآباء الذين لهم خبرة وعرفوا أسرار الإنجيل.

هل يوجد فرق بين تعليم الرب عن عدل الله، وتعليم الموحِّدين؟

٣٠- نعم؛ لأننا لا نؤمن بإله واحد خالق السماء والأرض فقط، بل نؤمن

أيضاً بأنه أرسل ابنه الوحيد لأجلنا لكي يخلصنا. فهو خالقٌ ومخلِّصٌ معاً، وهو نفسه الرب الواحد الثالوث القدوس، الواحد بالجوهر المثلث بالأقانيم. وقد يبدو لك أن جواب السؤال على هذا النحو هو محاولة للهروب منه، ولكن الحقيقة هي غير ذلك. هل تذكر أناسطاسيوس الفلاح الحكيم من قرية تاهو Ⲧⲁϩⲟ الذي كان يحب الأب ديونيسيوس، ويحضر خصيصاً للدير لكي يبحث معه دعوى الموحِّدين وضلالة الأخ زينون الذي ترك طريق الرب؟ لقد تكلم الأب ديونيسيوس في اجتماعنا معه بعد عيد القيامة المجيد وفي حضور زينون وبعض رؤساء الموحِّدين عن عدل الله وقال لهم: إن الإيمان بالثالوث يكشف لنا عن عدل الله. أمَّا الإيمان بإله واحد، فإنه يخلق لكم مشاكل كثيرة عن عدل الله ورحمته ومحبته. ولأن الكتاب الذي جمعه الأب حزقيال عن هذا الحوار لديَّ، فقد نقلت منه عدة فقرات، وأضفت إليه ما رأيته ضروري لك وللإخوة.

٣١– نحن لا نبحث في صفات الله، ثم نطبِّق بعد ذلك ما نبحثه على أقانيم الثالوث. نحن لا نبدأ بمنطق وفكر الإنسان غير المستنير، ثم نتقدَّم بعد ذلك إلى قدس الأقداس، أي الثالوث القدوس؛ لأننا إذا فعلنا ذلك وقعنا في أخطاءٍ لا علاج لها إلاَّ بالعودة إلى الإيمان. وحسب التسليم الرسولي الذي شرحه آباء الكنيسة الجامعة، والذي سبق أن شرحناه لكم في عدة فصول، نؤكد لكم الحقائق التالية:

أولاً: أقانيم الثالوث ليست أقانيماً تضاف إلى جوهر الله، بل هي أقانيم الجوهر الواحد. والجوهر الواحد ليس صفاتٍ مجردة تندرج تحت مضمون واحد هو الجوهر، بل الجوهر الواحد هو الطبيعة الإلهية التي تعلو على كل تحديد بشري، وهي الحياة الإلهية الواحدة التي في أقنوم الآب، والتي وُلِدَ منها أقنوم الابن أزلياً ومنها أيضاً انبثق الروح القدس. وحسب هذا الإيمان، كل ما هو للآب، فهو للابن وهو أيضاً للروح القدس. ولذلك كل الصفات الإلهية مثل المحبة والقداسة والقوة والعدل، هي صفات إلهية لكل أقانيم الثالوث.

ثانياً: كل ما في جوهر الله هو متأقنم، فليست صفات الله هي صفات غير أقنومية تضاف للآب والابن والروح القدس، بل المحبة هي محبة الآب، وهي ذات محبة

الابن، وهي ذات محبة الروح القدس. وعندما نسمع أن "الله محبة"، فهذا يعني أنها محبة الثالوث. وعندما نسمع عن بر الله وعدله في الأسفار، فهو بر أقنوم الآب وبر أقنوم الابن وبر أقنوم الروح القدس، ثالوث واحد في الجوهر، وجوهر واحد للثالوث.

فما هو عدل الله حسب تعليم الكنيسة الجامعة عن الثالوث؟

٣٢- إنه ليس عدل الملوك والقضاة والقانون الأرضي. ولذلك، المجازاة حسب عدل الله إنما هي مجازةٌ حسب المحبة، وحسب اغتراب الإنسان أولاً عن نفسه، وثانياً عن المحبة الإلهية، وهي أصعب بكثير وأدق من تعليم الموحِّدين الذي يحدد عدل الله بما لديهم من شرائع هي في جملتها لا تختلف عن شرائع الأُمم السابقة أو شريعة الرومان (الإمبراطورية الرومانية)؛ لأن لكل خطيةٍ عقاب أرضي، ولكل الخطايا عقاب واحد هو نار جهنم.

هذه هي دائرة العدل حسب تعليم. أمَّا نحن، فإن عدل الله هو سؤالٌ للإنسان عن صورة الله ومثاله الذي أُعطي له، والذي جُدِّد في المسيح، وقُدِّس بالروح القدس. فهو سؤال عن كينونة الإنسان، وماذا فعل الإنسان بكيانه، وكيف عاش كصورةٍ لله؟ هذا يضع عدل الإنجيل في مستوىً يختلف تماماً عن عدل الموحِّدين.

٣٣- لماذا نقول إن المجازة هي حسب المحبة؟

<u>أولاً</u>: لأن محبة الله للخطاة ظاهرةٌ في بشارة الحياة (إنجيل الحياة) لأن الله أحب العالم بشكل يفوق كل إدراك، وضعه الرسول في عبارة موجزة "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد" (يو ٣ : ١٦). هذه المحبة تعلو على كل صور وأشكال ورموز المحبة في العالم المنظور وغير المنظور. فكيف يجازي الله بعد ذلك بحسب قوانين وشرائع أرضية لا تحوي إعلاناً عن محبة الله؟!

أنت تعرف أن زينون تعثَّر في هذا السؤال، وعجز عن أن يجيب عليه. ولكن حسب محبة الله المعلَنة في الابن الوحيد نقول إن العدل الإلهي هو عدل الثالوث الواحد، عدل المخلِّص الذي مات لأجلنا وأحيانا فيه وأعطانا ميراث الملكوت. هذا يجعل الدينونة حسب الشركة وليس حسب الشريعة، ويجعل المجازاة ليس حسب تقدُّم

الإنسان وفضائله أو سقوطه وتوبته، بل حسب تمسكه بالإيمان، وحسب نموه الروحي في يسوع المسيح رب الخطاة وطبيب الساقطين.

ثانياً: إن اغتراب الإنسان عن الله يسبقه اغتراب الإنسان عن نفسه، عن كيانه الحقيقي، وهو ما تزرعه الخطايا فينا. وعلى سبيل المثال: مَن يقتل، يتعلم القدرة على تدمير الحياة، أي حياة أخيه، وعندما يقول الوحي "إن من يبغض أخاه فهو قاتل نفس" (١يو ٣ : ١٥)، فهو لا يذكر القتل بالسيف، وإنما قتل الأخ بسلاح البغضة غير المنظور الذي لا يملك القانون أن يُحاسِب عليه، بل يكشف عنه تعليم الإنجيل الذي يرد كل خطايا الإنسان، ليس إلى الأفعال الظاهرة، بل إلى القلب. وعندما يغترب الإنسان عن كيانه، فهو اغتراب لا يمكن فحصه حسب الشريعة، بل حسب شركة هذا الإنسان في الحياة الإلهية، وحسب نوع الفساد الذي تسرَّب إلى كيانه. هل تذكر صرخة زينون الذي ارتعب وقال بصوتٍ عالٍ: "هذه دينونةٌ أصعب". وظل صامتاً؛ لأنه لم يدرك – عندما ترك شريعة الإنجيل – أنَّ الرب يسوع المسيح مات عن الخطاة، وأحيانا معه حسب عبارة الرسول (كولوسي ٢ : ١٣)، وإن الدينونة هي حسب الحياة وليست حسب حرف أو نصوص الشريعة.

٣٤– فإذا كان عدل الآب هو عدل الابن وهو عدل الروح القدس، فهل هو عدل محبة الآب ومحبة الابن ومحبة الروح القدس، حسبما ذكرتم في رسالتكم؟

صعبٌ علينا أن نتصوَّر عدل المحبة، وسهلٌ علينا أن نتصوَّر العدل وحده والمحبة وحدها. وتصوُّر العدل وحده والمحبة وحدها هو تصوُّرٌ ساذجٌ لا يخص الإيمان؛ لأنه لا يوجد أقنوم ينفرد بصفةٍ لا وجود لها في الأقنوم أو الأقنومين الآخرين من أقانيم الثالوث. وهكذا يجب علينا أن نسأل: ما هو عدل المحبة؟

أولاً: إن مكافأة الشر بشرٍ مثله ليس من وصايا الإنجيل؛ لأن الذي قال: "سمعتم أنه قيل للقدماء عينٌ بعينٍ ..."، قال عكس ما وضعه علماء الشريعة من اليهود. وضمَّن الصلاة نفسها غفران الإساءة "واغفر لنا ما علينا – الصلاة الربانية"، وهذا يكفي تماماً لأن يجعل عدل الله ليس مثل عدل الشريعة، أو عدل قضاة الأرض.

ثانياً: لقد كان للقاتل الذي قتل بدون إصرار حق اللجوء إلى "مدن الملجأ"؛

لأنه لم يقتل عن غضب أو عن كراهية، ولذلك – رغم أنه دمَّر حياةً – إلاَّ أن الشريعة سمحت له بالحياة وأعطت له حق اللجوء. فإذا كانت الشريعة تعلو على قضاء الأمم، وتترك للقاتل فرصة الحياة، فماذا نقول عن شريعة "الميل الثاني"، وهو شذرة من صلاح الله وطول أناته (رو ٢ : ٤) الذي يقودنا إلى التوبة.

فما هو إذن عدل المحبة؟ ما هو عدل من أرسل ابنه الوحيد؟ وما هو عدل من مات على الصليب؟ ما هو عدل الروحِ القدس الذي يسكن فينا؟ هذه هي الأسئلة التي يجب أن نتكلم عنها حسبما ننال نعمةً من فوق؛ لأن عدل مَن أرسل ابنه، أي عدل الآب هو أن يردنا إليه نحن الذين كنا في كورة الموت وظلاله، فقد "أشرق علينا نور" (متى ٤ : ١٦). وعدل من مات عنا هو أن يعطي الفردوس للص اليمين وأن يغفر لصالبيه. وعدل الروح القدس هو عدل من يشفع فينا بأناتٍ لا ينطق بها (رو ٨ : ٢٦)، وهو عدل من يعاني من سكناه فينا حسب تحذير الرسول: لا تطفئوا الروح ...." (١تسا ٥: ١٩)؛ لأن الروح، نار المحبة يعاني من برودة القلب. ألا ترى من كل ذلك أن عدل المحبة هو أعلى وأعظم من كل صور العدل التي نعرفها؟

٣٥– لا يجب أن نحدد أو نحسب صفات الله دون وضعها وحصرها في إطار تدبير الخلاص المعلن في الأسفار، وحسب تعليم الآباء القديسين، بل لنتكلم باستقامةٍ عن الله.

وهكذا إذا وضعنا عدل الله المثلث في إطار التدبير، استطعنا أن نرى بوضوحٍ أنه ليس فقط عدل محبة الثالوث، بل عدل قداسة الله وصلاحه ورحمته للبشر. وهو عدلٌ يخضع لما يريده الله، وليس عدل يملي على الله أن يتصرف مثل القضاة. ولأننا ذكرنا قبلاً أن الثالوث ليس أقانيم تضاف إلى الجوهر، بل هم معاً جوهر واحد، وحياة واحدة، أُكرر - بكل استقامةٍ أرثوذكسية – إن الله ليس له طبيعة تسود عليه، وتقرر له ما يجب وما لا يجب؛ لأن هذا خاصٌ بنا نحن البشر، بل الطبيعة والأقنوم هما معاً حقيقة واحدة. نحن نولد بطبيعة لا نملك أن نغيِّرها، بل نسمو بها في حدود، وهذا لا يخص الله بالمرة. لذلك من الخطأ أن نتصور أنه توجد طبيعة تعارض الأقنوم، أو تفرض عليه تصرفاً وسلوكاً معيناً.

العدل وإخلاء الابن لذاته (فيلبي ٢ : ٦ – إلخ):

٣٦– مَن الذي فرض على الابن الوحيد رب المجد أن يخلي ذاته ويأخذ صورة العبد؟ هل هو العدل، أم الصلاح، أم المحبة؟ لقد فصلنا صفات الله بهذا السؤال، وبذلك وقعنا في بئر وتعليم الموحِّدين الناقص الذي لا ماء فيه.

لقد تطوع الابن بسبب محبته للآب أن يقبل صورة العبد، وأن يأخذ ما هو ضد طبيعته، أي الطبيعة الإنسانية المحدودة، فهل صار الابن محدوداً بالجسد؟ الجواب: لا. إذن كيف أخلى ذاته وخضع – كأقنومٍ – لطبيعةٍ ليست هي طبيعته؟ والجواب هو في كلمات الرب يسوع، فهو لم يفقد حرية اختياره، بل فعل ذلك حراً وجاز كل مراحل التدبير حسب اختياره. مات بحريته، وقبل ذلك أسلم جسده بسلطانه وحسب محبته وبإرادته وحده حسب كلمات التقوى (قداس مار مرقس).

هنا يجب أن يكف العقل عن بحث الأسئلة خارج حدود التدبير، بل عليه أن يدخل أعماق التدبير لكي يرى عدل إخلاء الذات في يسوع المسيح ربنا. وماذا نقول عن الابن وهو يجوز حياة العبد، والعبد في اتحاده وتأقنمه بالابن يجوز جبل طابور ويأتي بالموتى من نفاية الكون إلى الحياة، وبالابن وهو يرى جسده على الصليب ونفسه معلقة بمحبةٍ ناريةٍ جعلت الكون كله يتزلزل. هذه أمورٌ لا تخضع للبحث الفلسفي، بل يجب أن تترك لمبادئ التدبير، وهي حسبما نعرفها:

أولاً: إن كل ما فعله الرب كان لتقدمنا وخيرنا.

ثانياً: عندما أخلى ذاته، ظل الرب الواحد والإله المتجسِّد؛ لأنه لم يكن مرةً إلهاً، وفي مناسباتٍ أخرى إنساناً، فهذا ضد الاتحاد الذي لا يقبل الانقسام.

ثالثاً: في موته المحيي، ذاق الموت بالجسد لكي يبيده في كيانه، أي سمح للموت أن يقترب منه لكي يلاشيه.

رابعاً: أباد الجحيم بقوة لاهوته، ولكن بواسطة نفسه الإنسانية التي أشرقت في ظلمات الجحيم مثل البرق، وهدمت كل قوات الظلمة.

ولم يفعل الرب بالعدل وحده أو بالمحبة وحدها، بل بعدل إخلاء الذات الذي يعلو على كل تصوُّرات العقل. إنني اعلم أنني لم أُجِب على سؤالكم بكفايةٍ، ولكن في

الوقت الحاضر، وضعت حدود التدبير في إيجازٍ شديد، تاركاً لكل واحد منكم فرصة التقدم بنفسه نحو أسرار الله حسب طاقته.

٣٧- ذكرت لنا أن الآباء معلمي الإيمان علَّموا بأن الشر لا وجود له، أي بلا طبيعةٍ خلقها الله، فكيف قال الرسول: "حمل خطايانا في جسده على الخشبة"؟

جميع الطبائع المخلوقة نالت وجودها وحياتها وغايتها من الله خالق الكل بابنه يسوع المسيح، ولذلك السبب نعلم أن الشر لم يخلقه الله، أي لا توجد له طبيعة، وإنما يستمد وجوده من الإنسان خالقه، من فكره وإرادته وعلاقاته بالآخرين وبما يستعمله من الكون من عناصر وأشياء أُعطيت له وخضعت له وصارت تحت سلطانه. ولأن الله صالحٌ، فهو لم يخلق الشر، وإنما جاء الشر من سوء استخدام الإنسان لحريته، وسوء استخدام الكون.

٣٨- يحمل الشر صفات خالقه، أي الشيطان والإنسان. فهو مثل خالقه غير قادر على البقاء؛ لأن الطبيعة التي كونته لم تكوِّنه من العدم، أي لم تخلق كما خلق الله من العدم، بل كوَّنت وأبدعت ما لا وجود له إلاَّ في عقل المخترع (حرفياً: الصانع **Δγμορξος**). لقد خلق الله الحديد، ولكنه لم يعلِّم الإنسان صنع آلات الحرب من الحديد، ولذلك يقول النبي أشعياء إن آلات الحرب سوف تبيد؛ لأن الرماح سوف تصبح مناجل للحصاد (أش ٢ : ٤)، وبالتالي ما خلق سوف يصدأ، أو يفقد غاية وجوده بسبب صلاح الله، وهو ما يجعل بقاء الشر إلى الأبد مستحيل.

طبعاً نحن نرتعب من الشرور مثل القتل والتعذيب وسائر الشرور التي ترعب قلب الإنسان وتزعج نفسه، وتترك في النفس جراحاً تحتاج إلى وقتٍ طويل لكي تُشفى؛ لأن الأخ إبراهيم الذي عُذِّب وضُرِبَ ولم ينكر الإيمان، وبعد أن أطلقوا سراحه كان يذكر بدموعٍ ما حدث، وكان يتعزَّى عندما كنا نناديه بالمعترف **Ομολογιτης** وكان يصلِّي دائماً – كلما تذكَّر ما حدث له – من أجل معذِّبيه.

٣٩- أمَّا كيف حمل الرب خطايانا في جسده على الخشبة، حسب اعتراف الرسول المبارك بالإيمان المستقيم (الأرثوذكسي)، فإننا لا نجهل أن أعمالنا لا تدوم، وهي مثل الدخان أو عُشب الحقل، ولما جاء المخلص إلى "مخاض" الخلاص وإلى ميلاد

الإنسانية الجديدة، حوَّل الإنسانية القديمة فيه بالميلاد من البتول والدة الإله بالروح القدس - كما سبق وشرحنا من قبل — وبالمسحة في الأردن وتجارب البرية، ثم جاء إلى الجلجثة لكي يقدِّم نفسه ذبيحة خطية لأجلنا، والتقديم شمل الثالوث والإنسانية معاً، أي أنه قدَّم الذبيحة بنفسه (ذاته) إلى الآب وإلى أُقنومه الإلهي وإلى الروح القدس، تقديم واحد، ذبيحة واحدة، كاهن واحد، مُقدِّم واحد للثالوث الواحد. فهو أي الإبن له ذات حياة الآب والروح القدس، وهو لذلك لا يقدِّم ذبيحته دون أن يكون له قبول لنفس القربان؛ لأن له ذات الكرامة والمجد والقوة التي للآب والروح القدس، وهذا يعني أن كل ما فعله لأجلنا صادرٌ منه، وكائنٌ به، ومقدَّمٌ منه، وهو له كما للآب والروح القدس. وتجد هذا في الاعتراف الرسولي بالإيمان في كلمات التقوى "هذه التي نقدِّمها لك معه ومع الروح القدس" (قداس مار مرقس)؛ ولأن تقدمة ذاته قرباناً تخصَّه هو أيضاً، أعطى الكنيسة أن تقدِّم القربان لأن القربان مقدَّم منه وله وللآب والروح القدس. ولولا ذلك - وعلى نحوٍ دقيقٍ ظاهر لكل من يعرف كلمات التقوى — لما استطعنا أن نقدِّم القربان في القداسات.

٤٠— وعندما جاء ربنا يسوع المسيح له المجد إلى آلامه الطوعية، لم تكن خطايا البشر، لم تكن خطايا البشر حِملٌ ظاهرٌ محسوس، ولا هي جبل كان عليه أن ينقله، ولكن كانت الخطايا السابق واللاحقة، أي تلك التي سبقت موته المحيي، وتلك التي سوف تحدث بعد موته وقيامته، هي أصلاً مودعة في الطبيعة الإنسانية؛ لأن الرب عاد إلى المصدر، أي قلب الإنسان الذي لا يعرف خالقه — كما سبق وأشرنا في الكلام عن الموت الروحي — ولما عاد إلى المصدر، أي قلب الإنسان وجد كراهية وعداوة الإنسان لله ولأخيه الإنسان، بل ولكل الخليقة. ووجد أيضاً تسلُّط الشهوة والظلم وسائر الشرور التي مردها ومرجعها إلى الأُلوهة المزيفة التي اخترعها الإنسان لنفسه حسب كلمات المزمور "أنا قلت أنكم آلهة، ولكن لأنكم بشر تسقطون" (مز ٨٢ : ٦ س). هذه الأُلوهة الكاذبة هي التي صُلِبَت على الصليب؛ لأنه بتواضعٍ وانسحاقٍ فائقٍ قال للآب: "إلهي إلهي لماذا تركتني" (مز ٢٢ : ١)، أي أنه اعترف بأن الأُلوهة الكاذبةً تصطدم بالأُلوهة المتجسدة والحقيقية، لأن الشيطان قال للإنسان: "يوم

تأكل منها تصير مثل الله" (راجع تك ٣ : ٥). ولما أكل لم يصبح مثل الله، بل أصبح مثل ذاته، عاد إلى ذاته التي خُلِقَت من العدم، وصار فارغاً بلا غاية، أي بلا صورة حقيقية لكيانه أي صورة الله، وصار بذلك صورة نفسه. ولما سقط وجد الفراغ الآتي من الأصل أي من الطبيعة المخلوقة من العدم والتي لا أصل لحياتها أو وجودها غير الله، لذلك صرخ الرب بوجعٍ وألمٍ، هذا كثير ويفوق الاحتمال؛ لأن الحق أي الإله الحق من الإله الحق والنور من النور (راجع قانون الإيمان) وضع ذاته مكان كل العصاة والمارقين والجاحدين، ولم يكن هذا "كمّاً"، بل "كيفاً"، أي انحدار الإنسان إلى كبرياء وزيف الوجود، الوجود بلا إلهٍ؛ لأن الوجود الذي اخترعه الإنسان لنفسه حسب كلمات المزمور "قال الجاهل في قلبه ليس إله" (مز ١٤ : ١س). هذا الوجود بلا إله هو وجود الإنسان، الوجود الذي صُلِبَ على الصليب والذي صرخ "لماذا تركتني؟" لأنني الآن أجد ظلمة الحياة، أي الموت. ولكن لما اصطدم الموت بالحياة داسته الحياة وجعلت الإنسانية الجديدة ظافرة فيه وبه له المجد دائماً إلى الأبد، ولقدرته ولصليبه وقيامته كل سجودٍ وإكرام ولقيامته المجيدة كل تسبيح في السماء وعلى الأرض.

انتهي الفصل الأول من المئوية الثانية،
وهي ردٌ على أسئلة رهبان دير والدة الإله القديسة مريم.
نُقِلَت عن نسخة الأب الفاضل والقس الحكيم أرميا
كاهن كنيسة والدة الإله بقرية ⲁⲡⲁⲥⲟⲡ
سنة ٧٤٩ للشهداء الأطهار.

الأصول الرسولية للتعليم عن التوبة Μετανοια

أو عودتنا إلى النفس وإلى الله

التعليم الرسولي عن التوبة:[١]

٤١– يقول ربنا له المجد عن الابن الشاطر (الضال) أنه "عاد إلى نفسه" (لـو ١٥ : ١٧). العودة إلى الذات هي بداية عودتنا إلى الله؛ لأن "الرجوع" أو "العـودة" هي أول الغيث وبداية التحول في رحلة عودتنا إلى الله؛ لأن من لا يعود إلى نفسه التي هي كيانه هو غير قادر على العودة إلى الله الذي له طبيعة وكيان مختلف تماماً، بـل ويعلو على كل طبيعة مخلوقة.

٤٢– قبل أن تؤمن بأي شيء، يجب أن تحب نفسك محبةً حقيقيـةً، لكـي تعلِّمك محبة الذات الحقيقية غير الكاذبة أن تختار الإيمان لما فيه من صلاحٍ وخير.

٤٣– يبدأ اختبار الإنسان بالعودة إلى نفسه عندما يكتشف الزيف والـوهم والأُلوهة الكاذبة التي فيه. وإذا سألنا عن الأُلوهة الكاذبة يكون جوابنا مـن عبـارةٍ واحدةٍ، وهي أن الإنسان صار شريعةً لنفسهِ واختار الخير وميَّز الشر بدون الله، وبدون شركة فوقع في الموت.

---

(١) التوبة كلمة غير مسيحية دخلت الكتابات العربية المسيحية في العصر الوسيط، وقبل ذلك عند ترجمة العهد الجديد إلى اللغة العربية. وهي تعني الكف عن الخطية وترك الشرور، وهذا لا يعبر عن دقة وعمق علاقة الإنسان بالله في يسوع المسيح. ومع ذلك فقد تركنا الكلمة العربية، ووضعنا بجانبها شرح الأب صفرونيوس "الأصول الرسولية للتعليم عن عودتنا إلى نفوسنا وإلى الله"، وهو ما نجد صداه في العبارة الرسولية "الأُمم الراجعين إلى الله" (أع ١٥ : ١٩). والكلمة اليونانية القبطية μετανοια لا تعني فقط تغيير الفكر، بل أيضاً العودة إلى الأصل أي صورة الله، وهي عودتنا الحقيقية؛ لأن العودة أو الرجوع من الفعل القبطي ϣⲁⲛⲕⲟⲧϥ وهو رفع كل حاجز ومانع يمنع الإنسان من إدراك حقيقة كيانه كصورة لله.

٤٤- كيف جلب الشرُ الموتَ الروحي، ومن بعده الموت الطبيعي؟ الجواب هو إن تعدِّي الإنسان الأول حوَّله من كائن حسب الله، أي حسب صورة الله التي تأخذ كيانها وحريتها وحياتها كلها من الله، إلى كائن حسب الذات الإنسانية التي خُلِقَت من العدم، والتي لا يوجد فيها ينبوع حياة. ولما جفَّت الحياة مات الإنسان روحياً، وحفظته نعمة الله وحدها من العودة إلى العدم.

٤٥- لماذا سمح الله للإنسان بالتعدِّي؟

أولاً؛ لأن حرية الاختيار هي أساس المحبة، ولأن القهر والقسر (الإجبار) لا يخلق محبة ولا ينمي المحبة، بل يجلب العصيان، ولذلك عندما اختار الإنسان - حراً - كيانه وأحبه بدون الله عصى وسقط.

ثانياً، لا شركة بدون المحبة، ولا محبة بدون حرية اختيار، وهذا يعني أن تعدِّي الإنسان جعله يرفض الشركة ويترك ينبوع الحياة، أي الله ويبحث عن ينبوع الحياة في داخله، ولما لم يجده دخل الموتُ فكره وقلبه، وغرس فيه الموت - أي الخوف من الموت - البحث الدائم عن مصدر للحياة خارج كيانه، فزاد بذلك التعدِّي.

٤٦- كيف أنجب آدم وحواء بعد التعدِّي؟

والجواب هو إن الله وَعَدَ بالبركة قبل السقوط "أثمروا وأكثروا" (تك ١ :٢٨). ولما سقط الإنسان وتعدَّى وصايا الله لم يكسر الله وعده بالبركة رغم سقوط الإنسان؛ لأن الله - كشريك للإنسان - قَبِلَ أن يسقط الإنسان - كشريك - برفض الشركة والحياة مع الله، ولكن أمانة الله لم تسمح للإنسان بالعودة إلى العدم، ومحبته للبشرية لم تتوقف عن العطاء؛ لأن الله كان يرتِّب الخلاص حسب كلمات التقوى التي نرددها في صلواتنا الأرثوذكسية [1].

٤٧- العودة إلى النفس هي اكتشاف "الرتبة الأولى"، أي صورة الله؛ لأن الخطية هي ترك هذه الصورة، وانغلاق الإنسان في كيانه الذي يخلقه لنفسه بدون الله، والذي له شكل الحياة، ولكنه - بالقدرات الإنسانية وحدها - هو غير قادر على

---

(١) "أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك" القداس الغريغوري.

البقاء إلى الأبد. وحقاً قيل "إن الموتَ هو انفصال النفس عن الله"، انفصالٌ من جانبنا وسقوطٌ في بئر الذات الخالي من الحياة. وعن هذا قال رب الحياة مخلصنا الصالح "من وجد نفسه يضيعها"؛ لأنه وجد نفسه بدون الله، وحبس ذاته في ذاته، أمَّا من قدَّم ذاته، أي بذلها، فقد كسبها، ولأن البذل لا يتم بدون شركة، فلذلك أضاف قائلاً "لأجلي ولأجل بشارة الحياة" (راجع مر ٨ : ٣٥). وقال أيضاً عن الإنسان الذي يضل طريق الحياة "ماذا يكسب الإنسان إذا ربح العالم كله وخسر حياته أي نفسه" (راجع مر ٨ : ٣٦) لأن ما يراه الإنسان ربحاً ومكسباً وفيراً، يكلفه كيانه، ويستعبده لما يملك؛ لأن الموت جلب الإفراط في الحرص على ما نملك، وجلب ذلك الأنانية وحب الذات المزيَّف؛ لأن من يقتني لا يحيا وحده، وإذا شارك الآخرين يظن أنه صار يملك أقل، مع أن وصية رب المجد واضحة، إلاَّ انه عندما شرح غباوة الغني في مثَل الغني الذي ترك كل شيء لأن حياته قد أُخِذَت، قال عن هذا: "من هو ليس غنياً بالله" (لو ١٢ : ٢١).

٤٨– جلبَ الإنسان على نفسه حكم الموت الذي جاء مع الخطية حسب قول الرسول: "بإنسانٍ واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت" (رو ٥ : ١٢). وقد سمح الله بالموت من أجل القضاء على الخطية؛ لأن الله لم يخلق الموت، ولا هو سبب التعدِّي، بل كان الموت هو ثمرة الخطية كما يقول الرسول: "وإذ كنتم أمواتاً بالخطايا والتعديات أحياكم معه" (كولوسي ٢ : ١٣).

والآن صار الموت - بسبب الصليب والقيامة — القوة التي تهدم الخطية؛ لأننا نحسب أنفسنا "أمواتاً عن الخطية" بسبب صلبنا مع المسيح يسوع. نموت عن الخطية لكي نحيا للبر. هذه هي عودتنا إلى "الرتبة الأولى"، أي أن نترك الطبيعة الفاسدة القديمة التي كوَّنتها الأهواء والشهوات.

والموت هو القوة التي تهدم العادات الفاسدة، ولكنه ليس الموت كما نعرفه، أي "موت الخطية"، بل هو "الموت مع يسوع"، وهو عودة مستمرة دائمة إلى الصليب، إلى الحياة التي لا تعرف مهادنة الميول الفاسدة والعواطف التي تبعدنا عن الله، والأفكار السمجة الشريرة التي تحوِّلنا إلى "آلات الإثم"؛ لأننا لم نعُد في المسيح عبيداً لطبيعة، بل

أبناء نالوا نعمة البنوة، أي حياة متأقنمة في يسوع المسيح.

٤٩- يحرر الموت الإرادة، ومرةً ثانية، هو موت الصليب الذي قال عنه الرب يسوع "يحمل صليبه"، وهو موت دائم "من أجلك نُمات كل النهار"؛ لأننا نحتاج إلى أن نحمل الصليب، أي حياتنا الإنسانية في كل صورها حتى ما يبدو صالحاً لكي يُصلب؛ لأننا بالصليب نرى الخير كاملاً ونعرف الفرق بين الخير والشر؛ لأن الصليب هو شريعة البذل، وشريعة البذل تؤسِّس الشركة، والشركة تكشف لنا الفساد المستتر عندما نريد أن نأخذ كل شيء ونرفض أن نُعطي.

٥٠- يحرر الموت عواطفنا التي تؤجج الأنانية فينا؛ لأن الموت يكشف لنا عن فساد الطمع الذي قال عنه الرسول "عبادة الأوثان"؛ لأننا بالموت نرى أن كل ما نحمله من اهتمامات تعشش في القلب، تموت عندما نمتحن غايتها، ونرى أنها ليست أبدية.

٥١- يحرر الموت الفكر من الارتباط بالأمور الزائلة. وذكرى الموت ضرورية؛ لأنها تخلع من الإنسان كل ما يريد أن يفكر فيه لكي يتحرر الفكر. وحتى ذكرى الموت الطبيعي (البيولوجي) نافعة، أمَّا ذكرى صلبنا مع يسوع فهي حرية الفكر الحقيقية.

٥٢- هل تريد أن أُدلِّك على "وصفةٍ" طبيةٍ نافعة، ودواء ضروري يطهِّر العقل؟ اسمع كلام ديونيسيوس الحكيم عندما قال لنا في أسبوع آلام الرب: تذكَّروا كلمات يسوع المصلوب، إنها طريق الصليب نفسه، طريق من يريد أن يصلب نفسه مع يسوع. صلُّوا الصليب، أو صلُّوا يسوع المصلوب عندما تصبح كلمات الرب وهو معلَّق على الصليب هي ميراث صلواتكم. **آه يا يسوع ها أنا أدُق باب الحياة كي أسير معك درب الصليب لكي أُعلَّق معك بقوة الغفران، ولكي أملك معك عندما أستودع روحي لك وللآب، عندما أتأمل عطش من يبحث عن الملكوت، وأعطي له ذات الرجاء الذي أعطيته للص. سوف أجوز معك درب الصليب حتى النهاية، وسوف أرى معك الفردوس؛ لأنه بدونك، حتى الفردوس لا يطاق، فاسكُب محبتك المصلوبة في قلبي لكي أشتعل بقوة الصليب وأنال معك مجد القيامة.**

٥٣- وماذا نقول عن المُخيِّلة؟ أي تلك القوة الفائقة التي هي مرآةٌ للنفس.

ترى فيها حتى الأمور السماوية، وتدرك فيها بقوة الأشياء البعيدة عنا، وتحول حتى الأشياء القريبة منا إلى أشياء بعيدة.

عندما كان الأخ إبراهيم يُجلَد في الأشمونين بسبب الإيمان، كان قلبه مع يسوع حتى أنه قال: لقد كنت أرى الرب بعينيّ قلبي – أي بالمُخيِّلة – واقفاً معي يمسح الدم والدموع، ويحول العذاب إلى شوق ناري داخلي هو شوق المحبة.

إن عينيّ القلب هي التي ترى القوات السمائية، وتحول الصور المادية إلى رؤية غير مادية.

٥٤- تنال المُخيِّلة "رؤية جديدة" من طقوس ورموز الحياة الجديدة المُعلنة في الليتورجية؛ لأن معلِّم الحق ربنا يسوع المسيح، أعطانا هذه الخدمة الجديدة لكي يفتح عينيّ القلب لكي نرى الحياة الجديدة. وقد فعل ذلك مع تلميذي عمواس، لقد كان قلبهما قد التهب، واشتعل بنور الروح القدس عندما تكلم معهما الرب، وأعطاهما الموعظة، أي كلمات التعليم من الأسفار. وبعد أن أكمل التعليم جلس معهما، ولما كسر الخبز انفتحت أعينهما وعرفاه؛ لأن المُخيِّلة تطهَّرت بالكلمة وبالشركة في التعليم. ولكن لمَّا جاءت رتبة "كسر الخبز" انتقلا من الكلمة إلى "السر". وانفتاح العينين هو معاينة الرب الحي، وهي الرؤية التي تولد في النفس بالكلمة وبنور الروح القدس، وبالتذوُّق السابق (الخبرة الأولى) على لقاء الرب على طريق عمواس.

٥٥- تنقلنا الليتورجية بواسطة الرموز، وقبل ذلك بالكلمة إلى "سر" لقاء الكنيسة مع الرب. "سر" توزيع قوة الرب على أعضاء جسده، ولاحظ – يا ثيؤدوروس – إن كلمات الرسول بولس عن الجسد والأعضاء تنتمي إلى العالم الحسي المنظور، أي الجسد. ولكن المعاني تنتمي إلى "رتبة السر"؛ لأن الجسد معروف لنا جميعاً، ولكن أن تكون شركتنا معاً وفي الرب مثل أعضاء الجسد الواحد، فهذا من رتبة الإعلان السماوي عن وحدة الرب بالمؤمنين به.

٥٦- إن ما يعمله الخادم في الليتورجية – رمزياً – هو أن يفتح عينيّ القلب لكي يرى القلب - بواسطة المُخيِّلة - السر العظيم، سر اتحاد الرب بالجسد أي بنا، وأن يقبل القلب هذا السر، ليس بقدرة المُخيِّلة، بل بنور الروح القدس؛ لأن الإعلان

هو من الله، هو مثل النار، ولكن وضع الماء في إناء فوق النار هو مسئوليتنا وشركتنا في عمل الله وإعلانه في يسوع المسيح.

٥٧- هكذا تتحرر المُخيِّلة:

أولاً: عندما ترى ما هو محسوس، وتنتقل إلى ما هو غير محســـوس، فتـــدرك "بالحس" الروحي النقي عطية الله.

ثانياً: عندما تشترك كل الحواس معاً في الرؤية السماوية؛ لأننا عندما نأكـــل الخبز السمائي ونشرب كأس محبته، ندرك أننا — بالتناول - نعلو على ما هو محسوس ومنظور بواسطة كلمة البشارة التي نقبلها بالإيمان في الصلوات، والتي تفـــتح عيوننـــا لمعاينة مجد الابن الوحيد بقوةٍ واستنارةٍ يعطيها الروح القدس حسب احتمالنا.

٥٨- تنقلنا الصلوات — رمزياً — إلى السمائيات، فالاتجاه إلى الشرق يوقظ "الانتباه ⲡⲥⲩⲥ ⲛⲓ" في النفس. ورفع اليدين تسليم وقبول للشركة، ولذلك وُصِـــفَ بأنه ذبيحة المساء، التقدمة الحرة في خدمة إسرائيل (مز ١٤١ : ٢). والسجود الذي يُوصَف بأنه "ميطانية Μετανοια"، أي عودة الإنسان إلى خدمة الله وإلى خضوع المحبة بالروح القدس. ووضع علامة الصليب قبل أي شيء بمجرد الاتجاه إلى الشـــرق، هو عودتنا إلى ختم التبني ومسحة الميرون التي وُضِعَت على أجسادنا بعلامة الصـــليب المحيي. وإنارة الكنائس بالشموع، ولا سيما أمام أيقونات القديسين، أي نضيء بنـــور الروح القدس. وتوزيع البخور على الشعب، هو رائحة المسيح الذكية. والوقـــت لا يسمح لنا بشرح طقوسنا الجميلة، ولكنني أكتفي هنا بالجوهر:

أولاً: تنقلنا الطقوس من الكسل والتراخي وتشتُت الفكر بواسطة تغيير وضع أعضاء الجسد مثل رفع اليدين أو السجود لكي توحِّـــد كيـــان الإنســـان الـــداخلي والمنظور، وتجعله واحداً في الخدمة السمائية.

ثانياً: تكشف الرموز عن حضور الرب يسوع وإعلانه عن شخصه الإلهـــي وشركته في حياتنا الإنسانية؛ لأن من يرشم ذاته بعلامة الصليب، إنما هو مَـــن اتحـــد بصليب رب المجد في المعمودية والميرون، فنال سر موت الرب المحيي وقيامتـــه وصـــار واحداً معه، ولذلك نبدأ الصلوات بعلامة الشركة أي الصليب المكرَّم.

ثالثاً: تنقلنا الصلوات والطقوس إلى مجال عمل الروح القدس؛ لأننا بالكلمة والإدراك الروحي، ندرك أن قوة صلواتنا هي من الروح القدس. وحتى بعد صلوات المزامير نقرأ كلمات بشارة الإنجيل المقدس؛ لأن خدمتنا هي حسب الإنجيل، وحسب دعوة الروح القدس لنا؛ لأننا نسجد بالروح القدس، أي بإعلانات الروح القدس وبالحق، أي يسوع المسيح إلهنا.

٥٩– وعندما نتحرك أو نسجد أو نصلّي، فإن عينيّ القلب تدرك حقيقة السر المُعلن لنا من الله الآب في ابنه يسوع المسيح بواسطة الروح القدس.

العودة إلى الله:

٦٠– نحن صورة الله ومثاله حتى وإن كنا غارقين في أوحال الخطية؛ لأن نعمة الله المُعطاة لنا لا تُملك ولا تتبدد؛ لأن الله لا يعطي نعمة ثم يندم عليها، بل – كما ذكرت الأسفار المقدسة – أنه يندم فقط على هلاك الإنسان. والدليل على بقاء صورة الله فينا، الأمثلة الحية الباهرة للسلوك المقدس في العهد القديم: إبراهيم ويوسف وإيليا ويوشيا الملك وغيرهم. وحتى في تاريخ الأُمم نفسه، نجد – رغم الوثنية – من قاوم الوثنية، ووعَّى الناس إلى الأخلاق الفاضلة، أي التشبُّه بأخلاق الله: الصلاح والمحبة والخير. ولذلك يقول الرسول يعقوب إن جميع البشر خُلِقوا على صورة الله (يع ٣ : ٩).

وحسب التدبير جاء الرب ابن الله الذي هو صورة الآب، وأعلن لنا في الناسوت حقيقة هذه الصورة بعلاقته وشركته مع الآب، واتكاله المطلق عليه لكي يعلن لنا أن الشركة لا وجود لها إلاَّ بالعودة إلى المصدر أي الآب، ذات العودة التي أعلنها في أُقنومه الإلهي. ورغم أنه مساوي للآب في كل شيء، وله ذات الصفات الأُقنومية ، إلاَّ انه جعل كل شيء في حياته من الآب وللآب، حتى بعد أن قَبِلَ الروح القدس في إنسانيته لأجلنا، فقد جعل كل أعماله بما فيها إخراج الشياطين هي بقوة الروح القدس؛ لأنه "وحَّد" عمله وقوته بالقوة، أي ذات القوة التي له، وهي ذات قوة الروح القدس مؤكداً بذلك الشركة الكاملة.

٦١- صورة الشركة هي صورة الحق الذي لا وجود له في أي صورة من صور الانفصال؛ لأن الانفصال هو أول درجات السقوط، والموت هو آخرها. والحق هنا ليس فقط التسليم المطلق ومشاركة تامة في كل شيء، بل هو أيضاً المحبة التي لا تُبقي ولا تحفظ شيئاً لنفسها حسب كلمات الرسول: "المحبة لا تطلب ما لنفسها" (١كور ١٣ : ٥)، بل تعطي وتأخذ أيضاً في حركة حياة دائمة – كما سبق وذكرنا في رسائلنا عن الثالوث القدوس – لذلك أعود وأُكرر إن عودتنا إلى الله هي عودة شركة، عودة كل الأعضاء الحية في جسد المسيح الواحد الكنيسة إلى الله؛ لأننا عندما نفشل في ذلك، نعود كأفرادٍ ولا ننال قوة الشركة، لا سيما قوة الشهادة لغير المؤمنين.

٦٢- صلواتنا وأصوامنا وخدمات السرائر (الأسرار) وكل ما يتعلق بحياتنا من إيمان واعتراف بالإيمان، هي كلها شركة؛ لأنها صورة بشرية للصورة الإلهية الكاملة والحرة والصالحة، أي صورة شركة أقانيم الثالوث القدوس.

وعندما نفشل في حياة الشركة، فإن الفشل يضرب كل مناحي حياتنا بشكلٍ ظاهر أو مستتر، ويؤخِّر شهادتنا ويحِّدُ من عمل روح الشركة أي الروح القدس. وهذا لا يقلل، ولا يضع السالكين حسب الروح في أي خطر، ولكن عندما تُحاط الكنيسةُ بالضعف، فإن بروز واحد، يؤكد نعمة الله لذلك الشخص، ولكنه يحكم على الباقين بالضعف لا بالموت.

هكذا يجب أن نقول بكل دقةٍ إن انعدام مواهب الروح القدس، ليس مسئولية الروح القدس، ولا تأخُّر الروح القدس في العطاء، بل هو تفتت الوحدة الروحية؛ لأننا عندما لا نحيا معاً كجسدٍ واحدٍ، فإن الأعضاء الحية تأخذ ما يحفظها في نعمة الله، ولا ينال الجسد كله مجد المسيح.

٦٣- لا يوجد قانون يحدد لكل منا واجبه تجاه الآخر؛ لأن القانون الوحيد الذي لدينا هو المسيح يسوع رب الكل. فهو فينا وهو في الآخرين، ولذلك – في يوم الدينونة – يخاطب الكل معاً وليس فرد واحد. حقاً إن كل فردٍ منا سوف ينال مكانه في ملكوت ربنا يسوع المسيح، ولكن الفشل في حياة الشركة هو فشل ومسئولية الكل الذين زرعوا الانشقاق، والذين صمتوا عن الشهادة، والذين وقعوا في خطية تمزيق

الجماعة الواحدة بجمع الأتباع، ومناصرة فريق ضد فريق، ولذلك جاء حكم الرب على الكل معاً "ما فعلتموه بأي من هؤلاء حتى الصغار منهم، فبي قد فعلتم" (راجع متى ٢٥ : ٤٠)؛ لأننا معاً كجسدٍ واحدٍ يُحكَمُ علينا. وعلى الرغم من أن مَن يسقط ينال جزاء سقوطه، إلاَّ أن الضعف العام الذي يصيب الجسد كله ظاهرٌ بشكلٍ واضح.

علينا – أيها الإخوة — أن نتوب ونعود إلى الله معاً، عودة للشركة، وعودة كاملة بقانون واحد وهو أن الآخر هو ميراث المسيح، بل هو المسيح نفسه.

٦٤- لا نستطيع أن نُفَصِّل ونشرح كيف يجب أن نعامل الآخرين كما نعامل الرب يسوع؛ لأن قاعدة الحياة الواحدة التي لا يوجد غيرها هي المحبة المطلقة التامة التي نراها في الثالوث القدوس، والتي نتشبَّه بها حسب عمل نعمة الله فينا؛ لأننا لا نملك أن نكون مثالاً لشركة الثالوث بدون الثالوث. كما أننا لا نستطيع أن نكون مثل الثالوث، إذا لم يحل الثالوث فينا. وعندما يقول الرب يسوع أنه سيأتي بالآب وبالروح لكي تكون إقامته فينا أو عندنا، فإننا نلاحظ أن الكلمة الذي "كان عند الآب" (يو ١ : ١-٣)، هو ذاته الذي جاء إلينا بالحياة الأبدية التي هي "عند الآب"، والتي أُعطيت إلينا ليس بكلامٍ فقط، أي ببشارة الكلمة، بل أيضاً بشركةٍ حقيقيةٍ توهَب بالروح القدس لكي ننضم إلى الرب يسوع عابرين إليه بنعمة الله من الباب الضيق، أي الصليب.

وعندما نقول "الصليب"، فإننا لا نعني فقط العلامة، أي ختم الملك، بل الملك نفسه الذي لبِسَ الصليب، فصار صفةً شخصيةً له؛ لأنه حملُ الله الذي ذُبِحَ لأجل حياة العالم لكي نحيا به وفيه، وهو ما جعل الصليب ختم محبته وصفة شخصية له. ولأن الصليب هو "المفاصل" التي تحرِّك وتوحِّد كل أعضاء الجسد، وهو قوة الحياة التي تجمع الكل معاً، صار من الواضح أن الآخر مصلوبٌ معنا، وإننا جميعاً نحمل الصليب في قلوبنا قبل أن نرشمه على أجسادنا. وحتى الكلمات المقدسة "باسم الآب والابن والروح القدس"، هي ذات بشارة الحياة في صميم الميلاد الجديد؛ لأننا باسم الآب والابن والروح القدس نعتمد، وندخل بالمعمودية ومسحة الميرون حياة الشركة كأعضاءٍ في جسدٍ واحدٍ.

في المعمودية يضع الرب بذرة صليبه. وفي مسحة الميرون يعطيها ماء الحياة، أي الروح القدس. وفي الإفخارستيا يعطي لنا ذاته كاملةً. هذا يُعطى للكل، وهو ما يجعل كل واحدٍ منا المسيح بالنسبة للآخر، والآخرُ المسيح بالنسبة لنا. هذا لا يعني أن الشخص الواحد، الرب الواحد يسوع المسيح يتعدد ويتكاثر؛ لأن الأقنوم لا يتكاثر ولا يتعدد حتى أُقنوم كل إنسان، بل الحياة الواحدة التي تجمعنا بالرب الواحد يسوع المسيح هي الحياة التي كانت عند الآب وأعطيت لنا، والتي بها وحدها نستطيع أن نحيا الحياة الجديدة بالعودة إلى الله أصل حياتنا.

٦٥- نحن لا نستطيع بقدراتنا أن نجعل الكنيسةَ واحدة؛ لأن الوحدة نازلة من فوق، وهي قدرة الذي أعطانا أن نكون واحداً فيه، فهو الرأس الذي منه تنمو كل الأعضاء معاً (كولوسي ٢ : ١٩). جهادنا هو ألاَّ نسقط من الوحدة، أي من النعمة، لا أن نؤسس الوحدة. وجهادنا أيها الأحباء هو أن نحوِّل اللحم والدم إلى روحٍ، وهذا ليس بقدراتنا، بل بقوة المصلوب. من السهل أن نحول الروح إلى جسد، وأن نصبح جسدانيين، ولكن من الضروري أن يصبح الجسد روحانياً حتى لا نسقط في ذات خطية آدم الأول. وعندما نتحد بالرب نعرف من نعمته أن يصبح الطعام والشراب والملابس والمسكن والمال، وكل ما في الدنيا وسيلة لبلوغ مقام أعظم، وهو مقام الأبناء.

الحياة الجسدانية، أي تحوُّل الروح إلى جسد، تبدأ عندما تصبح الوسائل غايات، وعندما تصبح الاحتياجات هي كل ما نعرف وكل ما نريد وكل ما نطلب، ولذلك حذَّرنا الرب يسوع من هذا عندما أشار إلى الاحتياجات الضرورية، وقال لنا: "اطلبوا أولاً ملكوت الله وعدله، وهذه كلها تزاد لكم" (مت ٦ : ٣٣)، وما هو عدل الله هنا؟ ليس توزيع الأمور المادية، بل خضوع الماديات كلها – كوسائل – لغايةٍ واحدةٍ هي ملكوت الله.

٦٦- وقد تسأل – يا ثيؤدوروس – كيف نتوب معاً (أو كيف نعود معاً إلى الله)؟ وأُكرر إن عودتنا إلى الله ليست هي الكَف عن الخطية، كما يدَّعي الموحِّدون بالله، ولكن هي عودتنا إلى صورة الله فينا، تلك التي جُددت في المسيح يسوع؛ لأننا في

المسيح نستطيع أن نرى آدم الأول، وأن نراه في صورته الجديدة وندرك منها كيف كان قبل السقوط. لكن ذلك لا يجعلنا أنقياء ولا يفيد إلاَّ الراغبين في البحث العقلي والفلسفي، أمَّا الذين يشتاقون إلى مجد المسيح، فهؤلاء يدركون أن صورة الله فينا هي صورة الحرية النابعة من المحبة، والقداسة التي تُولد من الشركة، أي شركتنا في طبيعة الله، وشركتنا معاً كمسيحيين، وهذه نراها مُعلنَةً في المسيح الذي هو حرٌ من عبودية الطبيعة؛ لأنه عندما أخلى ذاته بحريته، برهن لنا على حرية أُقنومه، وعندما بذل ذاته لأجلنا أعلن شكل المحبة، وعندما صار رئيس كهنةٍ "مدعواً من الله لا من الناس على رتبة ملكي صادق" (عب ٥ : ٦)، فقد أعلن قداسته؛ لأنه خصص ذاته وجعلها ذبيحةً وقرباناً قدَّمه للآب لأجلنا. ولَّما قدَّم لأجلنا قدَّم لنا؛ لأنه عندما قدَّم لأجلنا أباد الموت، فصار تقدمةً لنا نحن الذين نتحد به "في شبه موته" (رو ٦ : ٥)، لكي نقوم قيامةً مجيدةً هي قيامته التي صارت باكورة، وقد سبقنا وصار هو البداءة؛ لأننا بدونه لا نملك شيئاً. وعندما قال الرسول: "أنتم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح" (غلا ٣ : ٢٧)، فقد أعلن لنا طريق عودتنا إلى الله، إنه عودتنا إلى صورة الله، أي صورة المسيح فينا.

٦٧- لنصلِّ معاً، ولنصُم معاً، ولنشجِّع بعضنا بعضاً، ولنترك كل وشايةٍ ونميمةٍ، ولنحفظ دائماً كلمات الرسول "المحبة تستر كثرة من الخطايا" (١بط ٤ : ٨)؛ لأن محبتنا للإخوة هي برهان السلوك القويم (الأرثوذكسي) الذي يجعلنا نطلب كل ما هو نافع وصالح لأنفسنا وللآخرين.

المحبةُ شريعةُ الكاملين

٦٨– عندما قال الإنجيلي إن "الله محبة"، أغلق الباب في هدوءٍ أمام كل فكرٍ فلسفي يناقش طبيعة الله وصفاته؛ لأن مَن هو قادرٌ على الغوص في أعماق كل الموجودات، وليس له محبة، هو بعيد تماماً عن الله ولا يعرفه.

٦٩– عندما قال الرب يسوع "أحبِّوا أعدائكم"، أغلق الباب بحزمٍ إلهي أمام كل أشكال العبادات مهما كانت؛ لأن محبة العدو هي محبة الله لكل الخليقة التي تعرفه أو لا تعرفه. هي محبةٌ مبسوطةٌ للكل، ومن لا يحب عدوه لا يعرف الله الذي جاء وخلَّصنا رغم أننا لم نطلب الخلاص، وفدانا دون أن نقدِّم شيئاً، ويعطي الملكوت بدون مقابل. ومن ليس له هذه المحبة ليس له ميراثٌ مع المسيح مهما كانت أعماله.

٧٠– لنبدأ بالمحبة. وإذا كانت محبتنا ضعيفة، فلنطلب روح المحبة (رو ٥ : ٥) لكي ننال قوة الحياة الجديدة.

ولأن المحبة تطرح الخوف، تطرح أيضاً الأنانية ثمرة الخوف.

ولأن المحبة تعطي ذاتها، تنال التواضع دون عناء، فهي لا تفتخر.

ولأن المحبة تغفر، تغرس السلام بدون مشقة.

ولأن المحبة تُصالح، لا تخلق الأعداء، وإن كانوا كثرة تمد لهم يد المصالحة حتى يقل عددهم رويداً رويداً.

ولأن المحبة تقود الإيمان – رغم أن الإيمان هو بدايتها – تعالج الشكوك بمرهم الرجاء.

ولأن المحبة تلد معرفة خاضعة للإيمان، ترتاح معها المعرفة.

ولأن المحبة صالحة دائماً، لا يملك الناموس أن يمسك بدفة سفينتها، لأن دفة سفينة المحبة هي الصليب.

ولأن المحبة هي جوهر الشركة، لا تقف عند حدود، بل تلد الشركة وتقويها

الشركة.

هكذا أيها المحبوب جداً، تصبح المحبة هي شريعة الكاملين [١].

٧١- لا تكتفي المحبة بمقاومة الخطية؛ لأن طريق المحبة هو العطاء، ولذلك فإن توبة (عودة) المحبين عرقٌ ودم، وليس فقط دموع وتوسل؛ لأنهم عندما يتركون المحبوب يعرفون رعب الجحيم نفسه، ويعودون بسرعة البرق إلى الله ينبوع محبتهم.

٧٢- لا تبحث المحبة عن قانون للصلاة، بل تصبح هي صلاة؛ لأن جوهر المحبة، شركة. قال أحد الإخوة للأب أرسانيوس: كيف أُشرك الرب يسوع في كل ما أعمله وأُفكِّر فيه؟ قال له الأب أرسانيوس: "أحِب الرب من كل قلبك وفكرك وإرادتك، وأنت تعرف كيف تجيب عن هذا السؤال".

٧٣- تغرس المحبة معرفةً خاصةً، فهي تعطي للقلب طلب ما هو صالح، وتدقق في طلب ما ينفع الشركة. وتبتعد عن الشك؛ لأن الشك يترع منها قوتها الحقيقية، ويحيِّد طاقتها. وترمي الشك بكل قوة الرجاء الذي تطلبه؛ لأن برهان المحبة الأول هو عطية الله، وبرهان المحبة الأخير هو ميراث الملكوت.

٧٤- لأن الله محبة، ولأن المحبة هي شريعة الله، ولأن كل ما أُعلن في الأسفار المقدسة يجب أن يوضع على أساس إعلان المحبة أي يسوع المسيح، لا تجادل المحبة في معاني الكلمات، بل تدري غايتها. ولا تسعى إلى جدلٍ حول كلمة أو أكثر، بل تسأل عن الحكمة. ولا تحدد شيئاً يزرع الخصام.

تحفظ سر الله في المسيح دون عناء؛ لأنها مقيدة بناموسٍ واحدٍ هو الصليب.

تُجيب على أسئلة الشيطان نفسه دون عناء، لا لكي تكسبه أو تحوله عن طريقه، بل لكي تقدِّم له درع التواضع الذي يجعله يهرب.

إذا ظهر الشيطان في شبه ملاك نور ترى فيه الكبرياء والافتخار، وبذلك تهزأ به.

إذا طلب هرطوقي جواباً عن تجسُّد الرب أو الثالوث أو الصليب، أجابت

---

(١) لعل القارئ قد لاحظ أن هذه الفقرة بالذات من أبسط وأروع ما كُتِبَ في الأدب المسيحي.

بكلمات الإيمان، واستطاعت أن ترى الذي يطلب المعرفة من الذي يريد العراك.

٧٥- لماذا نقول أن الصليب هو شريعة المحبة؟

لأن الصليب أعلن البذل الحقيقي لمن لا يستحق، ولمن لم يطلب أو يسأل. وأعطى الغفران لمن لم يتوسل. وفتح باب الفردوس لمن لم يكن له رجاء، ولكنه نال أعظم مما كان "يظن أو يفتكر". وحوَّل الموت ثمرة الخطية لكي يبيد الخطية، ورفع لعنة الموت، فصارت كلمات المصلوب "باركوا ولا تلعنوا" طريق الصلاح، وهدمت قوة الجحيم وأبادته، وبذلك أدانت الدينونة، وجعلت الرحمة تفتخر على الحكم (يع ٢ : ١٣). وعلى الصليب سال الدم والماء من جنب الرب معلناً الاغتسال والخلاص في سري المعمودية والعشاء السري لكل من يريد. ومزَّق الصليب صك الدينونة، وسمَّر كل أحكام الناموس، وجعل كل الوصايا الخاصة بسلوك الإنسان ثمرة المحبة، فغلب شريعة موسى عندما كتب على قلب الإنسان بدم يسوع المسيح الشريعة الجديدة والناموس الأبدي أي ناموس المحبة.

المحبةُ والإفراز

٧٦– عندما قال الطوباوي والمكرَّم جداً أبونا البار أنطونيوس إن الإفراز هو أساس كل الفضائل، وإن المحبة تحتاج إلى الإفراز، فهو لم يقدِّم أو يؤخِّر الإفراز على المحبة، بل وضع أساس التعليم القويم حتى لا يضل من يطلب يسوع من كل قلبه.

ولأن الإفراز هو أساس كل صلاح، فهو كامنٌ في جوهر المحبة، كما أن المحبة لا تستطيع أن تتقدم بدونه.

ولذلك سوف أكتفي هنا بما أخذناه عن شيوخ الدير الذين علَّمونا الحياة الأرثوذكسية، فقد سلَّمونا هذه الأقوال الحية.

٧٧– يفرز الإيمان التعليم الصحيح من التعليم الكاذب بمحبة الله للإنسان. لأن كل تعليم ينكر هذه المحبة أو يقلل من شأنها هو من الشيطان، ولذلك حذَّرنا الرسول يوحنا من الأنبياء الكذبة الذين ينكرون أن يسوع المسيح جاء في الجسد.

ليكن تجسُّد ابن الله هو سكين المحبة في يد الإفراز لكي تقطع به كل حبال التعليم الكاذب الذي يهدم محبة الله للإنسانية.

٧٨– تفرز المحبة تعليم قيامة الأجساد، ليس فقط بسبب قيامة يسوع المسيح رب المجد، بل لأن القيامة هي برهان الله نفسه على محبة الإنسان جسداً وروحاً.

٧٩– تفرز المحبة الشرح القويم للأسفار المقدسة على قاعدة الإيمان التي سلَّمها لنا الآباء، والتي نعترف بها في كل صلواتنا؛ لأن كل شرح يؤيد ما جاء في قانون الإيمان ويتفق معه هو شرحٌ قويم، حتى وإن لم يتفق في اللفظ؛ لأن تنوع الألفاظ هو حرية أولاد الله التي تؤكد غاية كل شرح، وهي الخلاص.

٨٠– تنوع الشرح لنصٍ واحدٍ لا يهدم الخلاص. أمَّا الشرح الذي ينفي كرامة البنوة، ويقيِّد الإنسان بسلاسل الشك في صلاح الله، فهو مرفوض؛ لأنه يصطدم بمحبتنا لله ومحبة الله لنا، وهي محبة واحدة.

٨١- الطقوس وسائل لا غايات، ترتيبٌ يترع الفوضى ويخضـع للإيمـان وللمحبة، ولا يقيد نعمة الله، بل يبحث عن إعلانها. ولأن الرب قال إن السبت جُعِلَ لأجل الإنسان، فقد وضَعَ الإنسانَ فوق الوصية، ومَن ذاق محبة الله يعرف ذلك، أمَّـا المقيِّد بسلاسل الناموس والطقوس، فهو يجعل الوصية أعظم من الإنسان؛ لأنه لم يدرك أن "رب السبت" يسوع المسيح هو الذي جعل الإنسان فوق الوصية؛ لأنـه تجسـد لأجلنا؛ ولأنه "مملوء نعمةً وحقاً" شُهِدَ له بأنه الإله الابن الوحيد رب السبت.

٨٢- يقول الرسول: "يوجد وسيط واحد بين الله والإنسان، يسوع المسيح الذي بذل نفسه كفارةً (فديةً) لأجلنا" (١تيم ٢ : ٥).

فهو لم يكن كواحد من الأنبياء جاء لكي يعلن لنا إرادة الآب، بل هو ابـن الآب الوحيد، وهو وحده الذي يعرف الآب كوسيطٍ بينه وبين البشر، لـذلك يميِّـز الإيمان كل الوسطاء ويرفضهم.

وتميِّز المحبةُ كلَ فداءٍ غريب، أو ينكر الصليب، وتجحده عـن معرفـةٍ؛ لأن الإنسان لا يفدي نفسه، ولا يملك أن يقدِّس كيانه، ولا يستطيع أن يشترك في طبيعـة الله، ولا يملك بقدراته أن يحب عدوَّه، وهنا - بالذات — مَن ينكر أن بشارة الصليب هي "قوة الله للخلاص"، هو بلا تمييز؛ لأنه بلا إيمان، وبلا محبـة؛ لأنـه لا يعـرف الصلاح، وبلا رجاء في الحياة الأبدية؛ لأنه لم يعرف العطاء.

٨٣- التسلط والقهر والخوف هم من الشيطان. لأن التسلط إنكارٌ للتجسُّد، والقهر جحدٌ لمن صُلِبَ، والخوف هو رفضٌ للمحبة.

لذلك مَن يميِّز هؤلاء الثلاثة الذين يسيرون معاً في إلفةٍ ظاهرة، قد اقتنى الإيمان والإفراز؛ لأن مَن يعلِّم لكي يجمع الأتباع هو محبٌ للرئاسة مثل أبيه الشيطان، ومـن يزجر لكي يخيف هو محبٌ للقوة مثل سيده الشيطان ومُستعبدٌ للقوة يحمِّل الناس أحمالاً عسرة مثل سادة اليهود، ولا يشترك معهم في حمل أثقالها لأنه مريضٌ بداء الكبرياء.

٨٤- يوجد خوف واحد مقدس نعرفه جميعاً هو خوف الإيمـان. وعلامـة خوف الإيمان هي التمسُّك بالوصية، أمَّا أنواع الخوف الأخرى، فهي ليس لها مكـان في حياتنا.

ونحن نميِّز خوف الإيمان بالبحث عن غايته؛ لأنه مكتوبٌ إن بداية الحكمة (رأس الحكمة) هي مخافة الله.

٨٥- توجد ثلاثة أنواع من الشكوك: شكٌ بسبب نقص المعرفة، وشكٌ مصدره ضعف المحبة، وشكٌ سببه عدم استقامة الإيمان.

الأول له دواء، وهو مطالعة الأسفار وطلب حكمة الشيوخ. والثاني له علاج وهو طلب معونة الروح القدس. أمَّا الثالث فهو يحتاج إلى بتر؛ لأن عدم استقامة الإيمان تُعالج برفض الأمور الوقتية والأمور الزمنية، وهي قد تجعلنا نشُّك في صلاح الوصايا ورحمة ومحبة الله.

٨٦- قبل أن نناقش الشكوك، علينا أن نميِّز هدف كل منها؛ لأن الشك في محبة الرب ليس مثل الشك في حكمة وجدوى وصايا الإنجيل. ومَن ميَّز هدف شكَّه عبر بحر العالم بهدوء وبمشقة أقل من مشقة الذي يجادل شكوكه.

٨٧- الشك الذي يقلل من ضرورة عودتنا (توبتنا) إلى الله، هو بداية قساوة القلب وموت المحبة، وهو مرض الموت الذي يجب أن نطلب له دواء المعرفة وصلوات الجماعة؛ لأن عدم العودة (التوبة) إلى الله تعني الموت.

٨٨- مَن طلب المحبة من الثالوث عاش في شركة مع الثالوث وبالثالوث. ومن طلب الإفراز من الثالوث أتقن فن الشركة، وعرف مكانته عند الآب السماوي؛ لأننا بالمحبة ندخل أعماق الثالوث الذي هو شركة المحبة. وبالإفراز ندرك أن شركتنا هي بالنعمة، وضمانها هو رئيس الكهنة ربنا يسوع المسيح.

الخدمة، وعودتنا إلى الله

٨٩- الخدمة دواء لكل نفس تسعى نحو الملكوت بقوة ونعمة الثالوث. خدمة المحتاجين هي تشبُّهٍ بالرب نفسه. وخدمة الموائد هي شركتنا في خدمة الله للكون؛ لأنه هو الذي يزرع الزروع، ويروي الأرض، ويعطي الغلاَّت والحصاد (مز ١٤٧).

٩٠- الخدمة مثلها مثل الصوم والصلاة وشركة الأسرار الكنسية، تنقي القلب من الإفراط في الاهتمام بالذات؛ لأن زيارة المرضى ورعاية المسنين، تجعلنا نرى خاتمة حياتنا وتقلل من اعتمادنا على القوة الجسدية.

٩١- على كل نفس أن تختار نوع الخدمة التي تناسبها، ولكن أحياناً يجب أن نقبل خدمة لا تناسبنا حتى نكتشف مدى عمق محبتنا وسلامنا؛ لأن الابتعاد عن الخدمة قد يكون له دوافع واهتمامات ضد وصايا الرب نفسه.

٩٢- لا يجب أن نطلب خدمة معينة لأننا نرغب فيها، بل أن نصلِّي ونطلب مشورة الرب يسوع الذي يخدمنا دائماً؛ لأننا إذا دخلنا خدمة بالصلاة وباتحادنا مع الرب يسوع تعلَّمنا الكثير عن نفوسنا وزادت نقاوتنا.

٩٣- قراءة الكتب ودراسة الأسفار المقدسة لازمة للكل، والذين أخذوا موهبة التعليم لا يجب أن يستعفوا من خدمة الآخرين، لا سيما المرضى؛ الرب يسوع علَّم وعمل، أمَّا من يعلِّم ولا يعمل، فعليه أن يفحص ذاته حتى لا تكون حية الكبرياء نائمة في قلبه وهو لا يدري.

٩٤- أيقونة المسيح الحية هي في البشر الذين نخدمهم، وهي أفضل بكثير من الأيقونات؛ لأن لها موعد الحياة الأبدية، ومجد الرب نفسه ليس في الرسم والخشب

والألوان، بل في الإنسان صورة الله ومثاله.

٩٥- مَن يشتاق لخدمة المذبح، يشتاق للأمور السمائية، ولكن مذبح الرب يسوع الحي هو في البشر الذين يحتاجون للخدمة والرحمة، وأعمال المحبة لها مجد القيامة أكثر، بل لا يمكن مقارنتها بملابس الخدمة التي سوف يأكلها التراب.

٩٦- يستدعي الكاهن في الصلوات الروح القدس بكلمات التقوى المقدسة، أمَّا أعمال الرحمة، فهي من الروح القدس الذي يعطيها لنا لكي يحل فينا وفي الآخرين.

٩٧- هل تريد أن تضيف فصلاً حياً لأسفار الله؟ اخدم الآخرين لكي ترى شيئاً مثل سفر أعمال الرسل، أو لكي ترى الرب حياً ممجداً عندما يصنع معك وبك عجائب الإيمان.

٩٨- يقول الرب يسوع كنت مريضاً وعرياناً ومسجوناً وكنت محتاجاً، وأنتم أتيتم وخدمتم احتياجاتي، فإن كنت تريد أن تكون حقاً متألهاً بالروح القدس، فها هو باب الشركة في الطبيعة الإلهية مفتوحاً أمامك وتستطيع أن تدخله متى شئت.

٩٩- لماذا قال الرب إنه هو المريض والعريان والمسجون؛ لأنه صار واحداً منا وجمعنا في شخصه القدوس، ولأنه كما يقول الرسول: "لا يستحي أن يدعونا إخوته" (عب ٢ : ١١)، فإن كنت تؤمن بذلك وتمتنع عن خدمة المحتاجين، فإيمانك يصبح باطلاً، وهو أقوال لا أساس لها في قلبك.

١٠٠- عودتنا إلى الله بالصلاة والصوم وشركة الأسرار المقدسة والخدمة هي دعامات الحياة الأبدية، أمَّا الحياة الأبدية نفسها، فهي عطية الله الآب الذي أعطانا أن نعرفه في يسوع المسيح وبمعونة الروح القدس.

أقوالنا وأعمالنا ليست هي مصدر النعمة، ولكن النعمة هي يسوع المسيح نفسه الذي جاء إلينا في آخر الدهور لكي يعطي لنا حياته التي لا نستحقها، وبذلك خلع جذور شجرة الكبرياء.

تمت أقوال الأب صفرونيوس بسلام من الرب

\+ \+ \+